
علي فوده
الفلسطيني الطيّب
رواية
أبو عبدو البغل
مدونة أبو عبدو
دار ابن خلدون

الفلسطيني الطيب

دار ابــن خلــدون
كورنيش المزرعة ـ بناية ريفييرا سنتر
بيروت هاتف ٣١٢٣٣٥
ص ب ١١٩٣٠٨

الطبعــة الاولى
١٩٧٩/١٢/١

علي فوده

الفلسطيني الطيب

(روايـــة)

دار ابن خلدون

صمّم الغلاف

الفنان اميل منعم

الإهداء

إلى التقدميين العرب



القسم الأول

صابر مطر

الفصل الاول

ــ هل سمعت بنبأ اغتيال غسان كنفاني ؟

ــ مــاذا ؟

ــ اقول : هل سمعت بنبأ اغتيال غسان كنفاني ؟

ــ . . . .

لم يرد «صابر» ، لكنه وجد نفسه يتفرس في وجه «عبــد التواب» و «مروان» ليعرف الحقيقة . ولما رأى وجهيهما جامدان، تأكد لديه انهما لا يمزحان . لكن شيئا في نفسه مع ذلك دفعــه لان يشد قميص عبد التواب صائحا :

ــ صحيح يا عبد التواب .. صحيح هذا النبأ ؟

حاول عبد التواب ان يخلص قميصه من قبضة صابر اولا ، ولكنه فشل. حاول ثانية فشل . حاول مرة ثالثة ففشل ايضا. عندها احس بأشمئزاز مفاجىء . احس بأشمئزاز، فقرب الجريدة من صابر حتى كاد يلصقها في وجهه ..

ــ اقــرا ..

ازاح صابر الجريدة قليلا، حدق فيها . وبلمحة سريعــة، سريعة، كانت عيناه قد شربتا الصورة كلها .. الابتسامة الطفولية، العينين الواسعتين ، الشنب الممدود، الـ ..

ـ اللعنة على كل من فوق الارض .

ثم راح يركض في شوارع «عمان»، يركض، يركض. ولما حاول مروان ان يلحقه، امسك به عبد التواب قائلا :

ـ دعه . بعد دقائق سيكون في «خمارة الاحزان» .

لكن صابر لم يتجه الى الخمارة .. ان الخمارة كانت دائما بالنسبة اليه هي نهاية المطاف .. انها اخر حل يمكن ان يلجأ اليه. وكم حاول صابر ان يعتق نفسه من هذه العادة الكريهة، لكن صلابة الواقع المر كانت تعيده قسرا الى الخمارة .

ظل صابر يركض ، يركض ، يركض .. كان يريد الذهاب الى بيته البائس في «حي الملفوف». كان يريد ان يختلي بنفسه ولو دقائق فقط .

وعاد يركض ، ويركض ، ويركض ، و.. اللعنة : ها هي الاسطوانة قد عادت تدور في رأسه من جديد .. ها هو يغرق في طوفان حزنه الاسود .. ها هو يعاود حقده القديم على ابيه وزوج ابيه وعلى الناس والعالم و ..

(عليك اللعنة يا ابي . اكان لا بد لك من تلك البصقة القذرة في رحم امي ؟ اكان لا بد لك ان تضيف الى احزان العالم حزن ابنك البائس ؟ اكان لا بد لك من الزواج من امراة اخرى بعد وفاة امي ؟ اكان لا بد ان تحكم علي بالحرمان والتشرد ؟ أكان ..)

وعاد يركض ، يركض ، يركض .. ويركض، ويركض ، ويركض ..

ان الحياة كلها ركض .. انها ركض فوق جسر النار والاشواك والخناجر .. انها عاهرة شبقة ، وعمرها كله سلسلة من الخيانات البذيئة .. انها ثمانية وعشرون عاما من البكاء على اعتاب الجوع والتشرد والضياع ..

(فقط بعد أيام قليلة من تمردي على بطن أمي .. فقط بعد أيام قليلة من تسربي الى الوجود ، كان ذلك الضيف المجهول يجلس في ديوان جدي . وديوان جدي يقال انه كان كبيرا ..

ويقال انه كـان لا يغلق ابوابه ابدا ..
ويقال انه كان يأوي الفقراء والوجهاء والمتشردين والعاقلين والبلهاء على السواء ..
ويقال ان القهوة كانت لا تنتهي من ديوان جدي ..
القهوة ؟ اللعنة على القهوة ..
في ذلك المساء الثقيل كنت ارقد بين احضان جدي . وكان جدي يساهر ضيفه المجهول ، والقهوة على النار ..
امسك جدي بالدلّة كي يكرم ضيفه . حركت يدي الصغيرة ، فاندلقت القهوة الساخنة على جسدي .. حملني جدي الى غرفة اخرى من ديوانه ، فصرخت أمي ...
تجمع الجيران على صرختها ..
تحمست جدتي ، فجاءت بقطعة كبيرة من العجين ووضعتها فوق جسدي المحروق ..
بعد ساعات كان أبي قد حضر الى البيت . جن جنونه . أركبني على ظهر الفرس وطار بي من قريتنا الصغيرة الى حيفا ..
في المستشفى كان العجين قد تيبس على جسدي .. اطلقت احدى الممرضات شتيمة قذرة على كل ما في الارض من فلاحين، لانهم جميعا اغبياء .. ثم بدأت تحاول ازالة العجين اليابس عن جسدي الطري ..
بعد أيام ـ قال ابي ـ كنت قد تحسنت ، فأخرجني من المستشفى ، بعد ان دفع دراهمه كلها وبعض جرار الزيت . رماني بين احضان امي ، بكت كثيرا حينما رات آثار الحروق ما زالت كالوشم على جسدي ، وانا بكيت كثيرا .. ومع ذلك فقد اعتبرني الجميع يومها فألا سيئا وصاروا يتشاءمون من وجودي بينهم ..)
كان صابر ما زال يركض ..
كان يركض ، يركض ، يركض ..
ويركض ، ويركض ، ويركض ..

(منذ ذلك الحين صار ابي يشك في انني كنت سبب جميع المصائب التي هبطت عليه فجأة بعد قدومي . فقد صدف ان هاجم الجراد في تلك السنة محصول الفلاحين .. لم يترك اخضر ولا يابس ، رغم انهم حاولوا مكافحته .. صدف ذلك فحزن ابي كثيرا ..

ضرب امي في ذلك اليوم ..

امتنع عن الطعام يومين كاملين ..

ناح بأكثر من موال حزين ، حينما كان يتجول بين بقايا القمح المهزوم ..

اقسم انه لا بد ان يأكل اكبر كمية من الجراد ، وقد فعل .. لكنه في النهاية اكتشف انني انا الذي كنت السبب في كل هذا . وقد اعلن ذلك في ديوان جدي حينما قال :

منذ ان جاء هذا الصبي جاء الجراد على البلاد .. انه صبي ملعون !

ولكن الشيء الذي أغاظ والدي اكثر ، وجعله ينتقل من مرحلة الشك في انني « نحس » الى مرحلة اليقين ، هو حادثان اخران .. فقد توفي جدي بعد أقل من نصف عام على قدوم الجراد ثم فرسه الاصيلة ايضا ، التي امتنعت عن الطعام والشراب فجأة ، ثم انبطحت على الارض ، وظلت تحمحم وتحمحم الى ان فارقت الحياة بعد ايام قليلة من وفاة صاحبها .

حين ذلك .. حين ذلك جن جنون ابي . أقسم برأس ابيه انني انا السبب في كل هذا . ثم ركل أمي في بطنها ، وقال : اذهبي انت وابنك عند اهلك .. يلعن ابو أهلك) .

توقف صابر قليلا واخذ يلهث ... نظر حوله، فرأى بعض المارة يحدقون فيه بدهشة واستغراب . تجاهل نظراتهم المتطفلة، وعاد يركض ..

عاد يركض ، يركض ، يركض ..

ويركض .. ويركض .. ويركض ..

(بعد سنوات كانت بوادر تلك الرائحة النتنة التي هبت على البلاد من شتى انحاء الارض .. كانت قد اتخذت شكلا جديدا . فقد كثر حديث الناس في قريتنا عن اناس غرباء دخلوا في جسد القرى والمدن وصاروا يسرقون خبز الفلاحين .. يشربون عصير البندورة .. يحلبون اشجار البرتقال .. يشوون لحوم البقر والماعز .

وقد غضب ابي كثيرا حينما علم ان بعض الناس قد قتلوا.. ادرك فجأة ان طابونه في خطر ، فقال ان عفاف الارض قد هتك ، ثم تناول بندقيته القديمة من « المتبن » وتمترس فوق السطوح .

تحمس كثيرون من رجال القرية ، ففعلوا مثلما فعل ابي :

في القرى المجاورة كانوا قد فعلوا كذلك مثل ابي :

في المدن الكبيرة .. في حيفا ويافا وعكا ، كان الناس ايضا قد فعلوا مثلما فعل ابي :

وأبي رجل عنيد ، خصوصا حينما يحلف براس ابيه .

ويقال ان كثيرين من اهل قريتنا عنيدون ايضا كأبي .

وكذلك يقال انه كان في فلسطين رجال كثيرون لا يقلون عنادا عن عناد اهل قريتنا ، وبعضهم كانوا يحلفون برؤوس آبائهم . وبعضهم كانوا يحلفون بالطلاق وبعيون اطفالهم . وآخرون كانوا يحلفون بشجر الزيتون والتراب ..

وظل التوتر والحماس في قريتنا على اشده ، حتى كان احد الايام .. كان يوما اسود من ايام قريتنا الهادئة الحزينة .. فقد عاد « عبدالله السرحان » من حقله وهو محمل على ظهر بغلته الشقراء ، وقد ربط مع سكة المحراث بحبل لف على بطن البغلة .. كان عاريا كما خلقته امه ، راسه يتدلى الى أسفل . ومن رقبته تتدلى جلدة سمراء مربوطة بحبل دقيق. وحينما اقترب احد الرجال من جسد « عبدالله السرحان » ورفع رأسه الى أعلى ، تبين للرجل ان الجلدة لم تكن سوى « .. ».

السفلة .. لقـد فعلها السفله !

وعلم كل اهل القريـة يومهـا ان الاوباش قد فعلوهـا مع عبدالله السرحان ، فثاروا .. استنفروا جميعا .. اخذت النساء تبكي وتولول ، والرجال اخذوا يهدئون من روعهن ، وقد حمـل كل منهم بندقيته القديمـة او خنجره او عصاه ..

كان ذلـك النهار اسود حقا ، لدرجـة ان ابـي قد نسي ان يشتمني او يشتم امي .. كـان الشرر يتطايـر من عينيه .. شرر حقيقي هو الذي كـان يتطاير ..

اهل القريـة جميعـا كانوا يروحون ويجيئون .. كل فرد احس فجأة انـه المسؤول عـن مقتل عبدالله السرحـان . كل فرد احس فجأة بمـا تحسه ام عبدالله السرحان ..

كل فرد احس فجأة ان عبدالله السرحان لم يكن «قطروزا» فحسب ، بل كـان واحدا منهم .. كان انسانا ودودا ، خدومـا ، طيبـا .

وكذلك شعروا ان مـا وقع لعبدالله السرحان اليوم قـد يقع لهم فـي اليوم التالـي ..

لذلك لم يبق صغير ولا كبير في القرية الا وخرج في جنازة عبدالله السرحـان ، حتى ان ابـي القاسي بكـى ذات يوم .. كان ذلك بعد اعوام طويلة على وفـاة عبدالله السرحان .. فقد روى لي تلـك البشاعة ثم بكى .. بكى بدموع حقيقية .. بـدمـوع حقيقية بكى .

ولكن ماذا حدث ؟ ماذا ..

لم يمض اكثر من ايام معدودة حتى كان الناس يعودون الى حقولهم كالعادة : النساء تجمع الحطـب والحشائش ، الرعيـان يسرحون ، الفلاحون يحرثون ويزرعون .. وكلهم يأكلون ويشربون في النهار وفـي الليـل يضاجعـون زوجاتهم ثم ينامون ..

وكادت حادثة عبدالله السرحان ان تنسى تمامـا لـولا ان حادثة ثانيـة قد حدثت في قريـة مجاورة .. فقد وجدت جثة

احد الشباب مرميـة في « وادي اللجون » وقد قطعت اذنـاه ووضعتـا في احدى جيوبه .

وحادثة اخرى في قريـة تدعى « دير ياسين » .. فقـد قيل ان اليهود قتلوا كثيرا من الشباب والاطفال والشيوخ والنساء في تلـك القريـة ..

حدث كل هذا ، فدب الرعب في القلوب .. الرعب هـو الذي دب ..

ومع ذلك ظهر رجال متحمسون يدافعون عن الاطفال والنساء والتـراب ..

واعتصم اخرون في الاحراش والجبال والمغاور ..

ولكن كثيرا من الناس العاديين كانوا قد حملوا امتعتهـم ورحلوا .. رحلوا الى قرى ومدن اخرى اكثر امانا. ومن قريتنا رحل ايضا اناس كثيرون . ولكـن ابي أصر على ان نظل هناك .

قال ان هذا لن يكون ابدا ..

قال انه لا يمكـن ان يترك الارض للغرباء ..

قال ان الذي يهرب جبان ، ابن جبان ..

وقال اشياء اخرى كثيرة ، ثم اخرج بارودته من المتبن مرة اخرى ، وعاد يقضي اوقاته فوق السطوح .

بعد ايام اخذ الناس يرحلون بالالوف ومن جميع القـرى والمدن .. فاضطر ابـي ان يأمر امي بالرحيل الى بلد فلسطينية اخرى تدعى « جنين » وقد عزى نفسه يومهـا قائلا : انه لـن تمضي ايام قليلة حتى نعـود الى بيتنـا من جديد .. ولكن ابـي عاد ، ولحقنـا بعد ايام . قال لنـا انـه قد قتل كثيرا من اليهود. ثم ضربني على وجهـي وقال : انت وجه النحس. انت سر هذه المصائب . ثم لطم وجهه بيديه وراح ينشج كالاطفال !

★ ★ ★

اصطدم صابر بشيء ما في الطريق . رفع راسه ، فوجد

نفسه امام فتاة .. فتاة جميلة ، جميلة . حدق في عينيهـا برهة قصيرة . التقت عيونهمـا الاربع لحظة . وقبل ان يفتح فمـه ليعتذر كانت قد قالت لـه .. انت سافل .

انزل عينيه الى الارض ثم عاد يركض ..

عاد يركض ، يركض ، يركض ..

ويركض ، ويركض ، ويركض ..

(تلـك الايام البائسة في سهول جنين بعد اللجوء .. جنين حيث تلـك الايام البائسة ..

جنين حيث البطيخ والثلج والخيام والشقاء .. الشقـاء والخيام والثلج والبطيخ يا جنين ..

جنين حيث الطفولة الحزينة واعواد الـذرة والتطفـل .. اعواد الذرة والطفولة الحزينة ياجنين ..

جنين حيث المياه القذرة وجبل « مهرون » وفرن« ابـو رقعة » .. فرن ابو رقعة وجبل مهرون والمياه القذرة يا جنين..

مـاذا حل بتلك الايام الغرابيـة من عام ١٩٤٨ ؟ ماذا حل بهـا ياجنين ؟

كان ابي قد اصبح صفر اليدين .. لم يستطـع ان يحضر الابقار واشجار التوت والزيتون ، لم يستطع ان يحضر اكـوام البرتقال وخلايا النحل ، ولا حتى بارودته الالمانية .. فقد دفنها في المتبن ، ثم حمل كيس دراهمه البائس ، ولحق بنـا الـى سهـول جنين ..

وحلت النقمة على والدتي ثم علي .. اخذ الحقـد يأكـل قلب ابي .. كـان يفكر ليـلا نهارا في سكـة المحراث وفي ديوان ابيه وفي القهوة السادة والبيادر .. لـم يتعود ابـي على الراحة فعزّ عليه ان ينبطح كالكلب امـام الخيمة يقارع امي وامي تقارعه. وصار حنينه يشتد يومـا بعد يوم الى خبـز الطابون ، فأخـذ يضربنـي بسبب وبدون سبب .. بسبب وبدون سبب اخـذ ابي يضربنـي ..

وحينما ذابت دراهمه القليلة، اخذ يطالب امي بست ذهبات عثمليات كانت قد اختزنتهن بعد زواجها منه ، فأنكرت والدتي .. والدتي انكرت لتدفعه الى العمل في جنين . ولكنه أصر على رفض فكرة العمل .. انه لا يعمل عند الناس اجيرا .. لقد اعتاد ان يعمل الناس اجراء عنده وعند ابيه . فكيف يعمل الآن عند الناس ؟ كيف يعمل في أرض غير ارضه ؟

كادت الفكرة ان تصيب ابي بالجنون .. هدد امي بطلاقها اذا لم تدفع له « العثمليات » الستة ، فناولته الذهب وهي تبكي وتدعي عليه بالموت ..

والايام .. الايام كانت كفيلة بتبديد الذهب . لذلك فقد وجد ابي نفسه صفر اليدين من جديد .. من جديد وجد ابي نفسه صفر اليدين ..

كان موسم الحصاد قد بدأ .. والجوع ايضا قد بدأ .. فصار ابي يجلس الساعات الطويلة حزينا ساهما وكأنه مشلول الحركة واللسان . وأنا وامي كنا ننتظر الفرج .. في اليوم الاول شحدت امي بعض الارغفة من دار عمي .

في اليوم الثاني باعت امي حزمة حطب الى فرن « ابو رقعة » واشترت لنا اربعة ارغفة وبطيختين صغيرتين . وفي نفس ذلك اليوم اكلت ضربا مبرحا من أبي حينما تذكر فجأة انني « نحس » وانني سر مصائبه المتوالية ، وذلك حينما نحر البطيختين فاكتشف انهما بيضاوان وطعمهما مالح ..

وفي اليوم الثالث كان الجوع قد انشب مخالبه فينا .. كنا نجلس في ظل الخيمة الممزقة مثل كلب وكلبة وجرو صغير .. أنا وامي كنا نبكي . وأبي .. كان ينظر الينا بحقد صامت حزين .. بحقد صامت حزين كان ابي ينظر الينا ..

وطالت نظراتنا .. نظراتنا طالت .

وطال صمتنا .. صمتنا طال .

وطال بكاؤنا .. بكاؤنا طال .

لم استطع ان افعل شيئا . امي لم تستطع ان تفعل شيئا.
ابي .. ابي وحده هو الذي فعل . قام فجأة بصق في وجه
امي ، ركلني ، ثم تناول منجله ومضى ..)
وبالضبط ..
بالضبط في نفس تلك اللحظة .. في نفس تلك اللحظة
بالضبط أحس صابر انه يقف امام الخمارة وأحس ايضا انه
كان مرهقا .. مرهقا كان ..
رفع بصره . قرأ العبارة القديمة : « خمارة الاحزان »..
ردد في نفسه : خمارة الاحزان .. آه يا خمارة الاحزان..
دفع الباب بعنف ثم دخل .. وقع بصره على مروان وعبد
التواب . تذكر انه كان في طريقه الى البيت ، وليس الى الخمارة
.. جلس بأعياء .. رفع يده لينادي الكرسون ، ولكن عبدالتواب
عاجله قائلا :
ـ ها .. أعرفت الآن من قتل غسان كنفاني ؟
بعنف بالغ ، بضربة قاسية على الطاولة ، بصرخة جريحة
اجاب :
ـ الشياطين .. الشياطين وحدهم هم الذين قتلوه . ألا
تعرف من هم الشياطين ؟ الا تعرفهم ؟ ألا ..

الفصل الثانــي

في حانة المساء يا امي
جلست ابكي حيث لا يجدي البكاء
في حانة المساء
جلست ابكي .. اندب الاحباب
اقول : يا احزان كفي
اقول : يا عذاب
انا هنا ننعق كالغربان في الارض الخراب
انا هنا اغراب
ليس لنا الا الدموع والشراب
في حانــة المساء
ليس لنا الا الدعــاء
حتى يدق الغيب ساعة الرجــاء
فتنفتح الابــواب !



تناول عبدالتواب القصيدة من امام صابر :

ـ انها قصيدة جيدة .. فقط لو تتجاوز احزانك يا صابر !
ـ احزاني ؟ انا اتجاوز احزاني ؟ انني لو تجاوزتها ، فانهـا هي لن تتجاوزنـي . لقـد ولدت والحزن في دمي .. في دمـي كـان الحزن يوم ولدت .
ـ ولكن الجماهير يا صابر .. الجماهير بحاجة الى زاد آخر . انها بحاجـة الى من يوفر لهـا الخبز . الدواء . الارض الاشجار . الوطـن .. انهـا بحاجة الى الشعـر الثـــوري . الرصاص . البنادق . بحاجة الى الثورة . الثورة فقط . فقط الثورة .
ـ عليك اللعنة .. ألن تكف عن قذف هذه الشعارات البائسة في وجهـي ؟
عبدالتواب :
ـ انها ليست شعارات بائسة يا صابر . انها الحقيقة .
(مروان ما زال صامتا . صامتا ما زال مروان)
صابر :
ـ لا حقيقة في عالم الاحياء هذا سوى الحزن . اننا نعيش في **عالم حزين، حزين . في عالم حزين نعيش .**
عبدالتواب :
ـ (لكن ماذا ستجدي احزانك ؟ هل ستطعم الجياع . هـل ستعيد الوطن . هل ستحطم الفوارق الطبقيـة في مجتمعاتنا . هل تطـرد الاغراب . هل .. ؟
صابـر :
ـ كفى . كفى . عليك اللعنة .
ـ يا الهي . لقد قلت لك الف مرة ان احزانـــك التافهـة لا تساوي شيئا . ستظل طيلة عمرك تضاجع آلامك الشخصية عبثا . عبثا ستظل تضاجع آلامك الشخصية .
(مروان ما زال صامتا . صامتا ما زال ..)
صابـر :
ـ عبث ؟ ولكن الحياة بأكملها عبث . انهـا جثة عفنـــة

يجتاحها الدود والوباء . رائحتهـــا كريهــة كريهــة . ان حياتنا لا تطاق . انهـــا اكذوبة كبرى . وكل مـــن لم يكتشف هذه الحقيقة بعــد فهـــو مغفل كبير .. كبير ..

ـ ولكن يا صابر .. لماذا تمارس الحياة اذن ؟

ـ المسألة بسيطــة يا عزيزي .. انني اعيش الان لانني لا اجرؤ على الموت. لا اجرؤ على الانتحار. انها ليست مسألة سهلة. ان اشجع الشجعان هو ذلــك الذي يقدم على الانتحار . وانا لــم اصل بعــد الى مرتبة اشجع الشجعان . كــان علي ان ارحل مــع المقاومة ، ولكنني جبـــان يا عبدالتواب جبان . جبان ..

عبدالتواب :

ـ ومتشائم ايضا .

ـ ربما ..

ـ وغير ملتزم ايضا

ـ ربما ..

ـ وانهزامي ..

ـ ربما ايضا .. لكنني مع ذلك لست كذابا !

(مروان ما زال صامتا . صامتا ما زال مروان . صامتــا. صامتا . صامتا)

عبدالتواب بحدة :

ـ من الكذاب اذن ؟

صابـــر :

ـ انت طبعا .

ـ انــا ؟

ـ نعم انت . لانك كل نهار تقذف في وجهي اكاذيبك البلهاء نفسها . نفس اكاذيبك البلهاء تقذفها في وجهي كل يوم .

ـ وما هي هذه الاكاذيب ؟

ـ الشعارات .. الشعارات يا عبدالتواب .. شعارات ماركس ولينين التي تحفظها عن ظهر قلب دون ان تلتزم لحظة واحدة في

تنفيذ حرف واحد فيهـا ..

انت مجرد ثرثار يا عبدالتواب . ثرثار .

ـ وانت قذر يا صابر .

فجأة كف مروان عن صمته . رفع راسه . نظر في وجهيهما قليلا . ثم أخذ يضحك بصوت مرتفع . اخذ يضحك ، يضحـك ، يضحك ..

بعد لحظات رفع كأسا :

ـ اشربوا يا جماعة . اشربوا .. بصحـة اكبر قاذورة فـي العالم .. بصحتي أنا !

ثم قذف بقية الكأس في جوفه دفعة واحدة .

تبسم صابر ..

عبدالتواب لم يحرك ساكنا . كان يحدق في وجه صابـر بحقد . بحقد كان يحدق في وجه صابر ...

نقر مروان كتف عبدالتواب . فتطلع هذا نحوه مغتاظا :

ـ نعم ماذا تريد ؟ هل تريـد ان تحدثني عن عاهرتك اللعينة؟

مروان يحاول ان يكون جادا :

ـ لا . لا يا عبدالتواب . انني لا اسمح لك ابـدا ان تصفها هكذا . لان « رويدا » ليست عاهرة . انهـا قوادة ، قوادة كبيرة .. عليك ان تتذكـر هذا في المرة القادمة ..

عبدالتواب وجد نفسه يضحك رغما عنه ..

صابر ايضا ضحك ...

اخذ الثلاثة يضحكون ، يضحكون ، يضحكون ...

مروان اغتنم هذه الفرصة وقال :

ـ هل سمعتم بأحدث نكتة ؟

ـ هات ..

ـ واحد فتح علبة سردين ، فزوجوه منها .

صابـر :

ـ واحد راح يضرب تلفون اخذ معه كرباج .

مروان :
ـ واحد راح يقعد على القهوة ، قعد على الشاي .
عبدالتواب :
ـ بايخة ، بايخة ، بايخة .
ـ بوجودك يا سيدي !
وعادوا يضحكون ، يضحكون ، يضحكون ..
مر النادل بالقرب منهم . فصرخ فيه مروان :
ـ ثلاث بيرة يا « طعمة » . واحد منهم ساخن عشان ثلاجة عبدالتواب .
وكاد مروان ان يعاود الضحك لولا ان صابر شده فجأة :
ـ عليك اللعنة . انني لا املك ثمنها !
ـ ومن قال انك ستدفع ثمنها ؟ يا اخي افهم عربي .. افهم يا بني آدم .. كل يوم تعالوا واشربوا على حسابي انا ، ولكن بشرط الا تتحدثوا في السياسة .
ـ شرط ماذا ؟
ـ لا تتحدثوا في السياسة
لا تتحدثوا في السياسة
لا
تتحدثوا
في السياسة !

الفصل الثالث

منذ متى ولدت معه هذه العادة ؟
منذ متى ادمنت تلك الاسطوانات المجنونة الدوران في عقله؟
لماذا لا تفارقه تلك الذكريات المرة ولو لحظة واحدة ؟
لماذا لا تتركه يعيش حياته كباقي الناس ؟
لماذا تطارده أشباح الماضي كلعنة كافرة ؟
لماذا لا ترحل عنه الى انسان آخر ؟
انها منذ اعوام بعيدة ، بعيدة وهي تلازمه . ولكن متى ولدت معه ؟ بالضبط .. متى ولدت ؟ متى ..

(كان الناس يجتمعون حول جثتها حينما دخلت .. نساء كثيرات كن هناك ، وقد امتزج صراخهن الكاذب بتمزيق الشعر والنواح والعويل . احدى خالاتي احتضنتني ، ثم اخذت تقبلني وهي تبكي ..

مسكين يا صابر . لقد تيتمت وانت ما زلت صغيرا .

نظرت نحو ابي . التقت عيوننا لحظة قصيرة . نكست راسي بعدها ، ثم رحت اداري نفسي مع دموعي حتى لا اصطدم بعينيه من جديد وحتى لا يتهمني بأنني سبب موتها .

وفي نفس تلك اللحظة بالضبط . بالضبط في نفس تلك

اللحظة بدات الاسطوانة الكريهة في عقلي تدور . بدات تدور ، تدور ، تدور . وظلت تعاود الدوران في لحظات تعاستي الكثيرة ولم تفارقني الى الآن .

ليس هذا فحسب ، بل انني في تلك اللحظة عرفت كل شيء .. عرفت انني لن اجد بعد اليوم انسانا احمتي به من هذا الرجل الجالس في الركن ، وهو يصر على عدم اهراق دمعة واحدة من اجل رفيقته الراحلة ..

عرفت انني لن استطيع بعد اليوم ان اعيش معه .. فأنا اعلم جيدا انه يكرهني منذ الصغر وهو ايضا يعلم انني اكرهه .

عرفت ان امي مضت ، وخلفت لي بعدها مستقبلا غامضا ينذر بالعواصف والبراكين والجنون .

وعرفت .. عرفت .. عرفت ..

وفعلا كأنني كنت اعرف كل شيء ..

فما ان مضت شهور قليلة حتى كانت امراة اخرى تجلس في البيت مكان امي . امرأة اخرى كالجرادة كانت تجلس ، وكان يجلس معها مستقبلي وسط كومة من الصقيع والضباب والعصي وأسراب الغربان ..

لم اكن بعد وفاة امي قد تبادلت مع ابي اكثر من كلمات قليلة ، كان يبصقها في وجهي بين الحين والحين . ولكن حينما جاءت تلك الجرادة الصغيرة الى بيتنا ، احس أبي بانه لا ضرورة مطلقا لان يكلمني فأمتنع عن محادثتي نهائيا . وبالطبع لم استطع انا ان اقول شيئا ، لذلك صرنا نجلس في بعض الاحيان كعدوين ..

ولكن حتى هذه الجلسات القصيرة المتوترة صارت لا تطاق ، فابتعدت عنه نهائيا وصرت اتحاشى مجرد النظر اليه حتى لا تلتقي عيوننا فتفضح ما يدور في نفسينا من مشاعر ..

بالطبع لم تحاول زوجته ان تكسر جبل الجليد بيننا ، بل عملت على ترسيخه ، بحيث صار امرا طبيعيا ، كما صار حديثي

مـع نفسي ، وبصوت مرتفع احيانا ، امرا طبيعيـا فيما بعد .
وازدادت الاسطوانات في مخيلتي .. الاسطوانات ازدادت ..
وازداد دورانهـا .. دورانها ازداد ..
وتنوعت تلك الاسطوانات .. الاسطوانات تنوعت ..
فقد كنت كثيرا مـا اجتر تلـك اللحظات الراعشة بالسعادة والخوف حينمـا كانت امي بجانبي . كنت اجترها . اجترها .. اجترها .. ساعات عديدة كنت اجترها . اياما طويلة كنت اجترها. شهورا ، سنوات .. كنت اجتر كل لحظـة امضيتها مع تلك الام الوادعـة التي كانت تشاطرني قسوة ابـي وصلابته ..
وحينمـا وفدت الينا تلـك الجـرادة الصغيرة ، وأخـذت ترعى أعشاب بيتنا الصغير ، وجدت ان اسطـوانة كريهة ، كريهة قـد اضيفت الى مجموعـة اسطواناتي ، وابتدات تدور ..
اريد ان آكل .. لكن الخبز ملفوف بقطعة من القماش، ومخبأ في صندوق حديدي، لا يستطيع ان يفتحه سوى الجرادة !
اريد ان اشتري حذاء .. لكن نقودنا القليلة كانت مخبأة في صرة الجرادة !
اريد ان اطلق لسان ابي الموثوق .. لكن لسانه ابتلعتـــه الجرادة !
اريد .. اريد .. اريد .. لكن الجرادة لا تريد !
وكرهت الجرادة ..
وكرهت ابي اكثر واكثر ..
وكرهت خالاتي وعماتي واصدقائي واهلي واقاربي ..
وكرهت الناس من حولنا .. الناس الذين لا يحاولـــون تغيير سلوك ابي تجاهي ..
الناس الذين لا يجرؤون على سحق الجرادة بأرجلهـم .. الناس الذين لا يشبعون بطني، ولا يشتـــــرون لي حـذاء، ولا يكلمونني ولا ..
كرهت الناس جميعا .. جميعا كرهتهم .. كرهتهـــم

جميعا .. جميعا كرهتهم .. كرهتهم .

★ ★ ★

قطيعة ابـــي
قطيعة زوج ابـــي
قطعية اهلي واصدقائي
قطيعة كل اقاربي
فحينما اسير بين الناس
ينتابني الوسواس
اخشى لقاءات العيـــون
اخشى وجوه النحس والنحاس
اخشى على نفسي من الجنون
فأرتمي في حانة الارق :
« عرق ..
عرق ..
عرق .. »
اواه يا قلبي الذي احترق !

★ ★ ★

نادى صابر على النادل :
ـ زجاجة اخرى !
« هذا اللعين عبد التواب .. اين ذهب ؟
ومروان اين ؟ لا بد انه الان بين احضان رويدا »
جاء النادل بالزجاجة . تناولها صابر :
ـ اجلس . اجلس يا «طعمة» . لم لا تشرب معي كأسا ؟ تعـال .. تعال .. يا اخي . تعال واشرب بصحة الكوابيس والاسطوانات والجراد . اشرب ..

لم يتكلم النادل .. نظر اليه بأشفاق . تبسم وهو يرثي له ثم عاد الى مكانه . فتناول صابر الزجاجة وجرع منها قليلا . ثم رمى راسه على الطاولة ..

(كان ذلك في صبيحة احد ايام ٦٥ الشيطانية ، حينما قررت الهرب .. كانت كل منافذ العالم قد سدت في وجهي .. ابي عاد مراهقا صغيرا يجري ورائي في النهار ليرضي جرادته ، وفي الليل كان يندس بين فخذيها لينال المكافأة .

ابي انقص مصروفي اليومي ..

كثر غيابي عن المدرسة ..

زوجة ابي انقصت وجبات الطعام ..

ابي صار يركلني بسبب وبلا سبب ..

لا اصدقاء ..

زوجة ابي اعتبرتني مكانا مناسبا لبصاقها ومخاطها ..

ابي صار يضربني بشراسة اكثر ..

الحياة عفنة ..

زوجة ابي علمت انني القبها «الجرادة» . صارت هي ايضا تحاول ان تضربني ، فكان ذلك اليوم من عام ٦٥ . ذلك اليوم الشيطاني كان .

جئت الى البيت متأخرا . طرقت باب غرفتهما .. فتحت المراة، فلما رات وجهي، بصقت فيه، ثم عادت واغلقت الباب..

طرقت الباب مرة اخرى .. فقالت : اذهب ..

قلت لها : انني جائع ..

قالت : اذهب ..

— لكنني قلت بأنني جائع . ولا استطيع النوم بدون اكل .

— قلت لك اذهب يا ابن القحبة !

— لكن امي ليست قحبة .

— ان امك قحبة وستين قحبة !

— بل ان هذه هي صفاتك انت ايتها الجرادة الحقيرة.. انها

صفتك وصفة امك وجدتك من قبلك !

عند ذلك .. عند ذلك قام ابي .. فقط عند ذلك قام .. فأدركت فورا ان هذه الليلة ستكون نهايتي اذا امسكتني يـداه. ادركت ذلك فهربت.. هربت .. هربت ..

الليل، الاشواك، الحزن، الدم، الدموع، .. كلها كانـت طريقي الى عمـان !

قدماي، السيارة، الريح، الاشجار .. كلها كانت طريقـي الـى عمـان !

الجوع، الغضب، الحقد، المرض، الكفر، اللعنات .. كلها كانت طريقي الى عمان !

اسطوانات الرعب كانت طريقي .. طريقي كانت اسطوانات الرعب .. اسطوانات الرعب كانت طريقي .. اسطوانات الرعب.

★ ★ ★

نقر مروان على الطاولة بأصبعه فرفع صابر رأسه . وقعت عيناه على عبد التواب اولا ثم على مروان ..

حاول صابر ان يضحك ففشل ..

حاول ان يبتسم ففشل ايضا ..

عند ذلك رفع كأسه وقال :

— اجلسوا .. اجلسوا لنشرب بصحة الاسطوانات ..

بصحة الاسطوانات اجلسوا لنشرب ..

بصحة الاسطوانات ..

بصحة الاسطوانـات ..

الفصل الرابع

في شارع من شوارع عمان القليلة ، كانت تقبع (خمارة الاحزان) .. وهي علبة صغيرة لا ترى الشمس مطلقا، ووجوه روادها مألوفة للجميع . لدرجة ان اي زائر غريب يعرف فور دخوله الخمارة، وتتركز حوله عيون جميع الزبائن القدامى. كأنها تطرده من بينهم.. فالشيء المألوف هو ان كل شلة كانت تجلس في ركنها المعروف في الخمارة، وعلى نفس الطاولة، ونادرا ما تختلط بأفراد شلة اخرى.. اما مجيء بعض الوجوه في بعض الاحيان، فكان حالة نادرة تثير الاستهجان وحتى السخرية او الخوف او الشجار ..

لذلك ما ان دخل رجل قصير يرتدي بدلة كحلية ونظارات سوداء، حتى لفت انتباه كل من في الخمارة لدرجة ان مروان اخذ يضحك بصوت منخفض، بينما قطع عبد التواب حديثه قليلا واخذ يتفرس في الرجل، ولما قدر انه لا بد وان يكون احد المتسكعين عاد واستأنف حديثه مرة اخرى :

ـ ها .. ماذا قلت يا صابر ؟

ـ عن ماذا ؟

ـ قلت لك يا اخي سأترك الحزب . سأترك الحزب .. ما رايك؟

ـ الحزب ؟ عن اي حزب تتحدث ؟
ـ اللعنة .. ولكنك تعلم جيدا انه الحزب الشيوعي .
صابـر :
ـ الشيء الوحيد الذي اعلمه جيدا هو انك مثل «خبز الصاج» .. لا مبدأ لك ولا عقيدة . واذا كان هناك ما تؤمن به فهـو مصلحتك .. مصلحتك فقط .
عبد التـواب :
ـ هل تريد ان نعود الى نقاشنا العقيم ؟ ان المسألة الان باتـت خطيرة : فالمخابرات، المخابرات يا صابر .. انهم يطاردونني .. انني اشعر انهم يتتبعون خطاي في كل مكان .. في المدرسة، في الشارع، في البيت، في كل مكان .. تصور يا صابر ان احـد طلابي يحاول اصطيادي ..احد طلابي يحاول اصطيادي ؟ ابـن الكلـب ..
ـ ماذا يهم ما دمت تؤمن بمبادىء الحزب ؟
كشف عبد التواب عن اسنانه قليلا واطلق ابتسامته اللزجة:
ـ هل تريد الحقيقة يا صابر ؟ الحقيقة انني بت اشك فـي نفسي وفي الحزب، وفي كل شيء . كل شيء ..
ـ اصمد . ان النضال ليست لعبة او تسلية .
عبد التواب :
ـ اسمع يا صابر .. انت ترش على الموت سكر . قلت لك انني لم اعد اطيق لعنة المخابرات . لم اعد اطيقها . وهذا يعني انني قد انهـار بين لحظة واخرى .
تدخل مروان لاول مرة منذ بداية الجلسة :
ـ ومع ذلك فأنت تصر على أن تحشر نفسك فيها، وفي كل شيء، فـي كـل شيء ..
صمت الثلاثة لحظات قصيرة ، ولكن صابر عاد يقول :
ـ لو كان الفدائيون هنا، لما اصابك كل هذا الرعب .. اليس كذلك ؟

عبد التــواب:

ـ تقصد اولئك الـ (...) ؟!

ـ بل اقصد الفدائيين .

ـ نفس المعنى .. نفس المعنى !

ـ انت تحقد عليهم، لانهم ضربوك ذات مرة بسبب انتقـاداتـك السخيفة .

ـ ضربوني ؟ ان اكبر راس فيهم لا يستطيع ان يمس شعـرة فـي (...) !

مروان اخذ يضحك ..

صابـر :

ـ ولكن، على كل حال .. اليسوا اقل ضررا من المخابرات؟

ـ بل جحيم المخابرات، ولا نعيم اولاد الزواني !

ثم قرب راسه من صابر وكأنه يريد ان يبوح له بسر، ولكنه فجأة سكت .. فجأة سكت عبد التواب واخذ يتفرس في الرجل القصير مرة اخرى .. كان الرجل يحدق فيهم . التقت عينـــاه بعيني عبد التواب . فسكت ونكس راسه . وحينما عاد وتطلـع فيــه من جديد، وجد ان الرجل يحدق فيه بحدة .

وبسرعة .. بسرعة خمن عبد التواب ان هذا الرجل لا بـد وان يكون مخابرات . اللعنة .. كيف فاتته هذه الحقيقة منـــذ البداية ؟ انه مخابرات .. مخابرات .. حتما مخابرات .

ـ صابر .. انه يراقبني .

ـ صابر .. الا ترى انه يتفرس في من خلف نظاراته ؟

ـ صابر .. انه مخابرات .. مخابرات ..

كان عبد التواب يتكلم بصوت مرتجف، مبحوح. وكـــان يحاول جهده ان يكون هذا الصوت مسموعا بأقل قدر ممكن ..

ـ صابر . قم بنا . قم بسرعة، قم يا مروان. هيا بنا يا جماعة هيــا ..

وبسرعة لملم عبد التواب نفسه، شد صابر من ذراعه، ثــم

لكز مروان في فخذه، وقاموا .. قاموا جميـــــعا وخرجوا من الخمارة . وما ان وصلوا الباب حتى غادر عبد التواب رفيقيــه مسرعا، وهو يلتفت شمالا ويمينا .

ـ صابر .. ما هذا البنى آدم ؟

ـ لست ادري .

ووضع صابر يده في يد مروان مودعا . ثم سار وهو يردد في نفسه :

اللعنة .. ان عبد التواب هذا قواد ..
قواد ، قواد عبد التواب هذا ..
انه قـــواد كبير ..
كبيــر ..
كبيــر ..

الفصل الخامس

اقول وقد زارني امس طيف الخديعة
اقول وقد قطعوا حبل وصلي
اقول وقد ذقت طعم الوجيعـــة
وجربت زيف الاماني
وزيف الصحـــاب
اقول وقد طفح الكيل فيَّ وطال العذاب :
غراب انــــا
ووجهي وجه غراب
وصوتي صوت غراب
ولوني لون غراب
غراب انا ، فأنفثني يا رياح الخماسين تحت لحاء الشجر :
لقد كان يوما نبيــا
وها قــد كفــر
وصار غراب .

★ ★ ★

ـ غراب ؟!

واخذ عبد التواب يضحك بصوت مرتفع .
ــ اتدري يا مروان ؟ انها المرة الاولى التي يجيد صابر فيها التعبير عن نفسه تماما : هذه هي المرة الوحيدة . انظر اليه... اللون الاسمر، الصوت الناعق، الصمت الطويل، الحزن .. انه غراب يا مروان .. غراب حقيقي .
وعاد عبد التواب يضحك من جديد ..
ــ لكنني لا اصف نفسي فقط في هذه القصيدة .. عليك ان تتذكر هذا يا مندور !
ــ تصف من اذن ؟
ــ انني اصفك انت يا عبد التواب. هذا اذا كنت حقا فلسطينيا ــ واصف مروان ايضا .. انها بعض تجربة الانسان الفلسطيني الذي اصبح مضطهدا في كل مكان ينزل فيه.
ــ ولكن .. من قال لك ان الفلسطيني مضطهد ؟
ــ ولو .. انسيت يا عبد التواب ؟ انسيت كيف هربت امس من رجل المخابرات ؟ انسيت ؟
ــ اللعنة .. انا هربت ؟ وحتى لو كان هذا صحيحا فعليك ان تتذكر كيف كان «الزعران» ذوو الملابس المبرقعة يصولون ويجولون في شوارع عمان قبل ايلول ..
عليك ان تتذكر كيف اطلقوا على مخيم الوحدات لقب «الجمهورية» .. ام انك نسيت هذا يا صابر ؟ هل نسيت كيف كانوا يشكلون دولة داخل الدولة؟ هل نسيت كيف اصبح الجندي مهانا؟ هل نسيت كل هذا ؟
ــ انت مجنون وواهم،لانك تتصور الامور هكذا.. فالفلسطينيون اناس حرموا ممارسة القول والعمل . لذلك كان طبيعيا ان يعبروا عن وجودهم. واذا صدف وحدثت بعض التصرفات الشاذة،فأنها تصرفات فردية لا اكثر .
ــ ولكن يا صابر ، الا تذكر حينما قلت لي ان زعران مخيم الوحدات والبقعة والنصر سيدوسون الدولة بأرجلهم ذات يوم

.. الا تذكر ؟
ـ انني اذكر هذا .. ولكن ماذا تريد ان تقول ؟
ـ اريد ان تفهم بأنك احمق، وقصير النظر. لانك تعلم جيدا ماذا حل بهم حينما اصطدموا مع السلطة في ايلول .

(فتح مروان المذياع، ثم استلقى على السرير، واغمض عينيه ..)

ـ لم تكن المسألة بهذه البساطة يا عبد التواب .. لقد كانت هناك ظروف عديدة اخرى، وكلها تعاونت على دحر الفدائيين . كلها تعاونت ..
ـ اتدري .. حتى لو وقفت الحيطان والاشجار والشياطين ايضا .. حتى لو وقفت كل هذه الاشياء مع زعران الوحدات، لما استطاعوا الوقوف في وجه السلطة، ثم لا تنس ان بعض الانظمة العربية كانت تتمنى الخلاص منهم لتصل الى اتفاق سلمي مع اسرائيل .. لا تنس هذه النقطة . ولا تنس ان الدولة كان بأستطاعتها الارتماء في احضان امريكا اكثر، فتطلب منها التدخل المباشر .. لا تنس هذه النقطة ايضا .

(اخرج صابر علبة الدخان من جيبه، ناول كلا منهما سيجارة ثم اعاد العلبة الى جيبه) .

اشعل عبد التواب سيجارته. نفخ الدخان وعاد يقول بسخرية :

ـ هل تذكر يا صابر . وانت يا مروان هل تذكر ؟ هل تذكران تصريحات صوت العرب، واكاذيب احمد سعيد؟ هل تذكران الدعوات التي وجهها الى العرب في كل مكان لحضور حفلة تحييها ام كلثوم في تل ابيب؟ هل تذكران الدعوات التي وجهها الى سمك البحر لحضور وليمة فخمة يقدم فيها لحم اسرائيل؟ هل تذكران؟ انها نفس غوغائية الزعران .

(تململ مروان فوق السرير. قام. شرب من قنينة كانت

موضوعة على طاولة صغيرة، ثم عاد الى مكانه من جديد) .

صابر :

- على اي حال لقد شبعنا من التصريحات. منذ عام ٤٨ ونحن نسمعها ومن جهات عديدة، ولكن هذا كله لم يغير من واقعنا شيئا .. اننا مضطهدون، وهذه حقيقة. لقد خذلنا كما خذل عبد الناصر . لهذا فاذا اردنا ان نحيا فأن علينا ان نصارع العالم كله من اجل بقائنا .

عبد التواب :

- لا يا صابر . ها انت تقع في خطأ جديد .. الشيء الوحيد الذي يجب علينا ان نفعله ، هو السكوت . علينا ان نتعايش مع واقعنا . علينا ان نندمج مع الاردن وسوريا ولبنان ومصر والسعودية واميركا والمانيا ، ومع كل بقعة في العالم .. العمر قصير يا صابر، ولا يمكن ان نضيع اعمارنا من اجل قطعة ارض تافهة لن نستطيع استرجاعها يوما .. ان الوطن ليس قطعة ارض .. انه البقعة التي يمكن ان يحس المرء فيها بالاستقرار والسعادة.

- عليك اللعنة .. ما هذا الهذيان ؟ انها سلبية واضحة. انها خيانة .

- انها ليست سلبية ولا خيانة بل انها واقعية .

- كفى .. ان واقعيتك هذه تثير اشمئزازي وتقززي .

قرب عبد التواب وجهه من صابر :

- تثير اشمئزازك ؟ وهل الغربان ايضا تشمئز؟ اسمع .. اسمع يا مروان اخر نكتة .. الغربان تشمئز؟ هه ..

ثم اخذ يضحك بتشنج ..

(مروان فتح عينيه قليلا، ثم عاد فأغلقهما وتظاهر بأنه لم يسمع شيئا)

- اتدري يا عبد التواب ؟ انني في كل مرة التقي معك فيها، ازداد اقتناعا بأن علاقتنا يجب ان لا تدوم ابدا. انت تختلف

عني، وانا اختلف عنك .. هذا واضح . انت تفكر بطريقة، وانا افكر بطريقة اخرى. هذا واضح . انت تنطلق في هذا العالم من خلال مصالحك وانانيتك. انت بلا مبادىء ولا ضمير . انت انتهازي . انتهازي. ولطالما تساءلت بيني وبين نفسي : اي لعنة تلك التي جمعتنا سويا ..

عبد التواب بحدة :

- وهل تظن انني سآسف كثيرا بالابتعاد عنك ؟ او حتى ... هل تظن انك انسان يعيش في هذا العالم ؟ انظر الى نفسك اولا .. انظر الى غرفتك هذه التي تجلس فيها الان.. هل هذه غرفة ام جحر ؟ وهذا السرير ..هل هناك «بني آدم» يرضى بالنوم عليه؟ وملابسك القذرة هذه، وكتبك التافهة، وعملك .. هل تظن انه شيء كبير ان يعمل المرء كمحرر ادبي في جريدة اسبوعية؟ ام يا ترى تعتقد انك اصبحت ناظم حكمت او بابلو نيرودا بأشعارك البائسة هذه ؟ ماذا تظن نفسك ..

وقام عبد التواب عن طرف السرير.. قام ليخرج من الغرفة، لكن مروان هب فجأة عن سريره، امسك بعبد التواب واجلسه من جديد :

- صابر .. الا تلاحظ انك لم تصنع لنا بعد فنجانا من القهوة؟

وقام صابر .. قام ليصنع القهوة .

نظر مروان الى عبد التواب نظرة طويلة .. نظرة طويلة نظرها الى عبد التواب ثم قال :

- شيئان فقط هما اللذان يدفعان بنا لمآزق المناقشات المهووسة هذه . شيئان فقط .. انهما الغربة والفراغ .. الفراغ والغربة .. الغربة والفراغ .. الفراغ والغربة ..
الغربة ، الغربة ..
الفراغ ، الفراغ .
الغربة والفراغ يا عبد التواب .

الفصل السادس

تفـو ..

امس اغتالوا غسان ، واليوم يغتالون هؤلاء الثلاثة، وغـدا لا احـد يعلم من سيكون الضحية .. ربما ابو عمار نفسه ، او جورج حبش او ابو اياد او ابو جهاد او .. ان محاولات التصفيـة قائمـة ..

تفـو .. و ..

وحاول صابر ان يأخذ جرعة كبيرة من سيجارته، الا انـه لم يستطع ان يبتعلها كلها .. عاودته نوبة السعال قوية حـادة ، لدرجة كان يحس معها ان شيئا في صدره يكاد يخرج من بلعومه.

تفـو .. و .. و ..

هذا السعال المخيف من اين اتى ؟ البرد .. لا بد انه البـرد الذي يهري عظامي كل ليلة . فالفراش غير كاف للتدفئة، وهـذا الباب الخشبي المهترىء تنفذ من بين شقوقه الريح وكأنـه غيـر مغلـق ..

والتدخين .. لعنة الله على التدخين .. فهذه السجائـر تمتص الصحة من ضلوعي، وتجعلني تربة صالحة للموت البطىء.

لكن لا .. المسألة ليست هنا . ان رب المشكلة كلها هـو الجوع .. الجوع الذي ظل يلاحقني منذ طفولتي .. الجوع ابـن

الزانية هو الذي احالني الى هيكل عظمي . فلا يعقل مطلقا ان يعيش انسان ما على صحن فول ورغيف من سندويش الفلافـل.. كان لا بد ان يرتوي جسدي من البندورة والرز والبطاطا والمشمش واللحم المشوي واللبن والبرقوق الاحمر .. كان لا بد ان اخـذ نصيبي من خبز وفواكه العالم حتى استطيع مواجهة الشر القابع خلف كل زاوية من زواياه، ووراء كل جدار من جدرانه الشاهقة.

تفـــو .. و .. و .. و ..

الدقائق تنقضي والايام تذهب من غير رجعة .. الشهـور والاعوام تمر دون ان اتمكن يوما من الشبع او الاستقرار او حتى الالتحاق بالثورة ..

الالتحاق بالثـورة ؟

كاذب انت كاذب .. الا تستطيع عبور النهر ؟ الا تستطيـع ان تقتل لو صهيونيا واحدا ثم تموت بعدها ؟

« تستطيع .. لا تستطيع .. تستطيع.. لا تستطيع .. تستطيع .. لا تستطيع »

ماذا يمكن ان افعل في هذه الجثة المهترئة التي احملها فوق ساقـي الهزيليـن ؟

« تستطيع .. لا تستطيع .. تستطيع .. لا تستطيع .. تستطيع .. لا تستطيع »

اغلب الظن انك تستطيع ان تفعل الكثير .. لكنك جبان .. جبـان انـت ..

انت لا تختلف كثيرا عـن عبدالتواب .. كلاكما جبان .. كلاكما يحلم بالثروة والرفاهيـة والفراش الدافىء والانوثة النادرة .. انت تستطيع ان تفعل كل شيء ..

« تستطيع .. لا تستطيع .. تستطيع .. لا تستطيع .. تستطيع .. لا تستطيع »

على اي حال .. هل تنكر ؟

هل تنكر انك فكرت اكثر من مرة في سعاد .. هـل تنكر

انك تغزلت بهـا في قصيدة كاملـة ذات مرة ثم فكرت في ارسال تلـك القصيدة لها لكنك طردت الفكرة نهائيـا بعدمـا ادركت عقم المحاولـة ؟

هل تنكر انك اصبحت في فترة ما مهووسا بها ، وكنت تقول بينك وبيـن نفسـك انها تشبه الفرس الاصيلة ؟

هل تنكـر ؟

لكن لا بأس .. الحق ليس كله عليك .. الحق عليه هو .. على ابيـك .. الحق على ابيك الطاغيـة الذي سلبك حقوقـك الانسانية ورماك بين سنابك الخيـل واسنان الذئاب ومناقيـر الجوارح .. رمـاك قبل ان يشتد ساعدك . الحق عليه هو ..

كم طفـلا انجبت الجرادة ؟

هل سمعوا بأخ اكبر لهم اسمه صابر ؟

هل يحبونني ؟

حتما لا .. لا بد انهم يكرهونني تماما ، او ربمـا لا يعرفون عني اي شـيء .

يا الهي .. كم انـا مشتاق لهؤلاء الصغار .

وتناول صابر زجاجة العرق . صب منهـا قليلا في جوفه ثم عاد واستلقى على السرير من جديد . لكنه تذكـر انه لم يدخن منذ اكثر من خمس دقائق فقام من جديد ، وأشعل سيجـارة جعلته يعـود للسعال ..

تفو .. و .. و .. و .. و .

لو كان المرء يستطيع ان يستغني عن هذا العرق الرديء .. لو يستطيـع ان يستبد له بقطعـة من لحم الضان . لو ..

« يستطيع .. لا يستطيع .. يستطيع .. لا يستطيع .. يستطيـع »

الغريب حقـا ان مروان يشرب دون ان يحس بـأذى .. يدخن دون ان يحس باذى .. يسهر دون ان يحس بأذى .. يفعل كل شيء .. كل شيء يفعله دون ان يتجرأ عليه المرض .

مروان ؟!

لكن .. ايـن ظروفك من ظروف مروان ؟ اين حياتك مـن حيـاة مروان ؟

ان الخادمة التي تعمل في بيتهم ترفض ان تقبلك زوجا لها .

واخذ صابر يضحك للفكرة .. اخذ يضحك الى ان عـاوده السعال ، فبصق على الارض ثم دفـن رأسه في الوسادة وصدره يعلو ويهبط وانفاسه تتحشرج والدمع يسيل من عينيه ..

تفـو ..

فقط لو كنت املـك دينارين لاذهب الى الطبيب ، حتمـا انـي لست فـي صحة جيدة . أنا مريض والشيطان وحده هو الذي يعلم ما هو مرضي .

آه .. ليتني ذهبت مع مروان امس حينمـا أراد ان يأخذني الى الطبيب . على الاقل كان من الممكـن ان أعرف سر هـــذا السعال والبصاق والآلام التي تمزق صدري . ولكن ... مـاذا سيفعل لي الطبيب ؟

المسألة معروفة .. سيأخذ دينارا او دينارين ، ويعطينـي بعض الادويـة من النوع الذي لا يضر ولا ينفع ، ثـم يصرفنـي بالتـي هـي أحسن .

ها .. ها .. ها قد عدت الى الكذب على نفسك من جديد. انت تعلم انـك تتحرق شوقا للذهاب الى الطبيب . ولو كنـت تملـك ثمن الكشفية والادويـة لما ترددت لحظة واحدة فـي الذهاب . امس قلت بينك وبين نفسك : دعك من صدقة مروان، ونظرات الرثاء التي امطرك بها ، الكرامة أهم .. أهم من الصحة.

ثـم عدت تقول من جديد :

ولكن .. لماذا تفكر بهذه الطريقة يا صابر ؟ مروان صديقك .. وهو يحبك ويحترمك ، ويتمنى لك الشفاء والخير .

ثم عدت ثالثة تقول :

لا .. انه بورجوازي عفن ، مثله مثل أي بورجوازي آخر .

ان اباه هو الذي مص دمك . انه عدوك . وكذلك ابنه وكل افراد طبقتــه ..

« عدو .. صديق .. عدو .. صديق .. عدو .. صديق .. عدو .. »

أنت محموم بلا شك . فهذه هي المرة الاولى التي تفكر فيها هكذا . ومن اجل ماذا ؟ من اجل قليل من السعال والمخاط ؟

تفو .. و ..

ترى .. كيف يعيش اهالي مخيم البقعة والوحدات ؟ لا بد ان ابناءهم جميعا مصابون بأمراض كهذه .

تفو .. و .. و ..

لو كان راتبي من الجريدة يكفي ..

لو كانت الصحافة تطعم خبزا ..

لو كان الادب والشعر يكفي اهله شر البرد في كانون ..

او حتى على الاقل لو يطلقون حرية الصحافة والادب .. لو يتركـون المرء يقول ما يريد .. لو ..

تفو .. و .. و .. و ..

كم من الاعوام ستمضي قبل ان تنقلب المفاهيم ، وتتغيـر العــادات ؟

اعوام طويلة بلا شــك ..

ولكن ، يا للجحيم .. كم ستكون هذه الفترة مظلمة وقاسية في عيـون الاطفال الذيـن لـم يتكونوا بعـد في ارحام امهاتهم . يا للجحيم ..

يا للجحيم .. كيف سيقولون للصغار غدا ان « الايــادي الغريبة » هي التي اغتالت الشهداء في بيوتهم ومراكز عملهم ؟

يا للجحيم .. ماذا سنقول لهم عن كمال ناصر ؟

ماذا سنقول عن ابي يوسف النجار ، وكمال عدوان ؟

آه .. المسألة بسيطة ..

اعتقد ان النسيان سيحفظهم في احد اوراقه الممزقة ، او

انه سيضمهم الى ملف غسان وابـي علي اياد . انها الذاكـــرة العربيــة سريعــة النسيان .

ها .. ها ..

ها انت قد بدات بالخطابة يا صابر . وبعد قليل سيصفـق لــك سريــرك المهدم وكتبك الممزقة . اليس كذلـك يا مستر هايــد ؟ ام ترى انــك الدكتور جايكل ؟

« مستر هايد .. دكتور جايكل .. هايد .. جايكـل .. هايــد »

وراح صابر يضحك ساخرا من نفسه بمرارة ، الى ان عاودته نوبة السعال من جديد فبصق على الارض .

تفــو ..

لكن نظرته تجمدت هذه المرة فوق البصاق .. فالبصاق لونه احمر .. احمر لون البصاق . البصاق لونه احمر . احمر لون البصاق ..

دم ؟!

ثم أجهش بالبكاء .

الفصل السابع

اف ..

لا بد من عمل شيء .. اي شيء .. فالحال لا يمكن ان يستمر هكذا . لا بد ان يتوقف هذا الدم اللعين ..

لكن ، ماذا افعل ؟

لقد رفض رئيس التحرير ان يمنحني السلفة . لو حصلت عليها لذهبت الى الطبيب فورا . لقد اصبح السكوت عن هذا الدم النازف من صدري مؤامرة ..

« انني أتآمر على نفسي بدون ان ادري »

بدون ان تدري ؟

لكنك تعلم كل شيء . بالتأكيد انه السل او السرطان او اي شيء آخر من هذا القبيل ، انت تعلم هذا جيدا . ومع ذلك فها انت تقف وكأن الامر لا يعنيك ... كأنك تشتهي الموت .

اشتهي الموت ؟

ومن منا لا يشتهيه ؟ من منا لا يرغب بطريقة او بأخرى في الخلاص من الكوابيس التي تضج في راسه ؟

مروان .. مثلا ؟

مروان الذي سئم حياته البورجوازية ، وسئم « رويدا »

والفيلا التي كـان يقبع فيهـا ؟ مروان الذي ركل كل شيء وهرب من اهله ليعيش معـي؟ مروان الذي تمرد على كل شيء من اجل لا شـيء .. الا يشتهي الموت ؟

ام عبدالتواب ؟

عبدالتواب الذي ترعبه كوابيس المخابرات والزوجة والاولاد والتدريس والعمل الادبـي والاحباطات .. الا يحن عبدالتواب للمـوت ؟

المسألة واضحة .. كلنا نحلم بالخلاص من هـذا العالـم بطريقـة او بأخرى .. كل فلسطيني يحلم بهذا . لكننا مع ذلك لا نجرؤ على تنفيذ ما نشتهيه . لا نجـرؤ عـلى المـــوت او الانتحـار .

أف ..

ها انت قد عدت للتفكير في نفسك من جديد ، وكأن العالم كله لا يوجـد فيـه سواك . هـــا أنت تنسى الوطـن المسروق والزنوج والهنود الحمر .. ها انت تنسى الاستعمار والحـروب الدائـرة في دول العالم الثالث . ها أنت تنسى الجوع في الهند والباكستان . وحتى « اليندي » .. اليندي الذي كنت تتحدث عنه دائمـا وكأنه صديق شخصي لك ، ها أنت تنساه . وها أنت تنسى ماياكوفسكي ، لوركا ، بريخت ، فيكتـــور جارا . هؤلاء الذيـن تكتب عنهم دائما . ها انت تنساهم وتنسى كل شـيء، كل شيء ما عداك يا صابر مطر .

ومد يده ليتناول سيجارة من العلبة المرمية على الطاولة ، لكنه سعل سعلة خفيفة ، فتراجع عن الفكرة ..

آف .. هذا الحر اللعين .

ثم رفع راسه عن حافة السرير الحديدية ، وشق البـاب قليـلا ، فتسمرت عينـاه عليها ..

سعـاد ؟!

سعاد ..ايتها الجارة الحبيبة .

سعاد .. ايتها الجنية المسحورة .
سعاد .. ايتها الداء القديم الذي ينخر صدري .
سعاد .. ايتها الانثى الخصيبة الحافلة بالكنوز والهدايا والوعود .
سعاد .. يا آلهة الشعر والحدائق والورود والنخيل وحقوله .
سعاد .. يا آلهة الشعر والحدائق والورود والنخيل والحمام .
سعاد يا سعاد ..

وابتسمت سعاد ، فرقص قلبه فرحا .. قام عن السرير ووقف قبالتها . اتسعت ابتسامتها . ثم اخذت تضحك بصوت مرتفع ..

موسيقى الجاز .. طبول الزنوج .. اعراس الفجر .

شعرها اخذ يتساقط على وجهها المستدير ، عصفوران في صدرها احذا يزقزقان مع نغم الضحكات .

آه ..

واحس صابر فجأة كأن قلبه قد عاد سليما معافى ، وان صحته قد عادت الى جسده وروحه . احس انه يود لو يقفز هذه الخطوات القليلة ، ويتخطى هذا الحاجز الصغير الذي يفصل بينهما ليحضنها الى صدره ، ثم ينامان معا ، معا في فراش واحد صغير .

ـ استاذ صابر . هل طلعت نتائج التوجيهية ؟

تكلمني ؟ سعاد .. تكلمني انا ؟!

تفتحي ايتها الورود اذن . اهطل ايها الثلج في عز الصيف ، توقفي ايتها الحروب الدائرة في شرق الكرة الارضية وغربها . افرحوا أيها الاطفال ..

لقد قام الموتى من قبورهم . عاد الغرباء الى ديارهم . شبع الجياع . والمرضى اصابهم الشفاء .

ـ عفوا آنسة ماذا تقولين ؟
ـ اريد ان اعرف نتيجتي في التوجيهية . وقد فكرت بانك ربما تستطيع ان تساعدني من خلال عملك في الجريدة .
ثم شالت سعاد عينيها من عينيه ، انزلتهما الى قدميه، وعادت تضحك من جديد .. نظر الى اسفل فبانت رجله العارية.
اف .. ملعونة هذه البيجاما . قطبتها مرتين ، لكنها في كل مرة كانت تتمزق من جديد . كان قماشها قد ذاب من فوق الركبة لكثرة الاستعمال والغسيل ، فأضطررت امس لقص احد طرفيها .
اف ..
كيف نسيت ان احدى رجلي عارية والاخرى مكسوة ؟
ورفع صابر راسه اليها ليعتذر ، لكن سعاد لم تمهله ، ضحكت بصوت مرتفع ثم غابت الى الداخل .
احس صابر بالخجل يقطر من كل خلجة في جسده . مسح عرقه عن جبينه ، ثم عاد الى السرير وسعاد تعيش في ذاكرته ..
اف .. اللعنة على هذه البيجامة القذرة ، لا بد من تغييرها.
ولكن .. ما ذنب البيجاما ؟
فحتى لو كانت سليمة ، هل من الممكن ان ترضى سعاد بجثة هزيلة ينزف منها الدم والاوساخ والتشرد والمذلة ؟
حتما لا .. ان سعاد جديرة بقصر احد الامراء .
وهل الامراء افضل منك ؟
اسكت .. انهم افضل منك ومن ابيك ايضا .
هراء .. هراء ..
انني عاشق سعاد الحقيقي . وهي لا تليق الا بي ، ولا اليق الا بها .
وضرب صابر الباب بعنف . ثم مد يده الى السيجارة . لكنه عاد وتذكر ان التدخين سيجعله ينزف من جديد ..

(دخن .. لا تدخن .. دخن .. لا تدخن .. دخن)

حتى التدخين يا الهي ؟ الا يكفي انني محروم من اكثر متع الحياة ؟

(دخن .. لا تدخن .. دخن .. لا تدخن .. دخن)

انها تسخر مني بلا شك ..

(دخن .. لا تدخن .. دخن .. لا تدخن .. دخن)

ملعونة هي سعاد . ملعون هو العالم الذي انجبها .. انها علتي الابدية ..

(دخن .. لا تدخن .. دخن .. لا تدخن .. دخن)

لكنها حبيبتي .. حبيبتي انا .. انا ..

وتناول صابر السيجارة ، أشعلها . رشف منها جرعة صغيرة . احس انه سيسعل ، لكنه اصر على كتم سعاله ، وجرع جرعة اخرى من السيجارة فانفجر صدره بالسعال العنيف . بصق فرأى دمه احمر ، احمر . تجاهله ، لكن السعال ازداد فقام مرة اخرى عن السرير ، خرج من الغرفة الى الساحة الضيقة التي امامها .. كان خليط من البصاق والدم والدموع والمخاط يتجمع في حلقه ، فيقذفه خارجا .

ــ صابر ؟!

رفع راسه فرأى سعاد تنظر اليه برثاء ، ونظرات الجزع في عينيها . بصق اشياءه تجاهها ، تجاهها ، تجاهها ..

عاد مسرعا الى غرفته ، ثم ضرب الباب بعنف بالغ ،واستلقى على السرير من جديد .

القسم الثاني

عبد التواب الفواعرة

الفصل الاول

مهـــازل ..

ثم اغلق عبدالتواب باب المرحاض العمومي جيدا ، واعـــاد القراءة من جديد : « أنا شاب في العشريـــن من عمري ، اريـــد ان « ... » امراة ، أي امرأة . وسوف أدفع كل مـــا يطلب منـــي من نقود . ملحوظة : عندي شقة واسكن فيها وحدي » .

مهـــازل ..

(ان الكبت الجنسي يكاد يدمر عقول هؤلاء الشباب جميعا. ربمـــا لو كانوا يعيشون في بلد اكثر انفتاحا لابدعوا فـــي شتـــى الميادیـــن . ولكن ..) ـــ ـــ ـــ !!!!؟

مهـــازل ..

وفك عبدالتواب ازرار بنطاله ، واراد ان يقرفص ، الا ان عينيه وقعتـــا من جديد على اعلان ثان كتب بخط أسود على الجدار الايمن : « يعيش ابو عمار » وتحتهـــا بالضبط كتبت عبارة اخرى: « يسقط ابو عمار . يعيش البطل العظيم الملك حسين » .

مهـــازل ..

واشعل سيجارة ثم راح يقرأ من جديد :

« لن ننسى دمك يا وصفي التل »
« يلعن ابوك »
« يا ناس افهموا .. الكتابة على المراحيض عيب » .
(هذه هي الامة التي يرتجي الجرو صابر منها الخير) .
مهـــازل ..
وأنزل عبدالتواب بنطاله الى أسفل ، ثم قرفص وهو مـــا زال يفكـــر :
مساكين هؤلاء الناس . انهم لا يجدون مكانا ينفسون فيه عن آرائهم السياسيـــة سوى المرحاض . وهم قد ينسون اي شيء من اجل حفرة صغيرة بيـــن ساقي امراة ، او من اجـــل حفنـــة صغيرة من المال) .
النساء ؟ المال ؟
(ملعون ابو المال .. المال الذي ورطني مـــع تلـــك الكلبة ، وجعل حياتي جحيما لا يطاق) .
واشعل عبدالتواب سيجارة اخرى من عقب السيجارة التي كانت بيده ، ثم اخذ يمصها بحقد ، وكأنه ينتقم بذلك من المـــال الذي استعبده ، واجبره على الزواج منها .
يا سلام .. انني احس وكأن كل شيء لم يحدث الا منـــذ لحظات . ان ذلك اليوم المشؤوم مـــا زال ماثلا في مخيلتي وكأنه لـــم يمض عليه كل هذه السنين الطويلة . كان ذلـــك يوم خميس، حينمـــا دخل ابـــي ضئيل الحجم وأبلغني بالاستعداد للـــزواج منها . قال ان اباها لا يريد منـــا شيئا . وقد تكفل باتمام مراسيم الـــزواج حتى آخر فلس . وهذه بالطبع فرصة نادرة لنـــا فضلا عـــن ان البنت بنت خالك .
فكرت يومها في كل شيء .. كان جسدي يعذبني . ولطالما حلمت بجسد ابيض ممتلىء احتضنه كالوسادة كل ليلة . لكننـــي كنت اعلم جيدا ان لا امل لـــي فـــي الزواج قبل الوظيفة التـــي وعدني بهـــا خالي . لذلك حينمـــا ابلغني ابـــي ضئيل الحجـــم

بالاستعداد للزواج منها ، احسست بصاعقة دموية تهبط فـوق رأسي ، فهي لا تملـك لو ذرة واحدة من الجمال ، كما انها عنيدة كالبغـل ولا تستطيع القراءة او الكتابة . لكنني مع ذلك ، وجدت نفسي على الفور افكر بالوظيفـة التي ستطير من يدي اذا رفضت الزواج منها ، لان خالي سيعتبر الامر وكأنه مس بكرامته ،وسيلغي الوظيفـة وكل شيء . وكذلك المال الذي يمكن ان تطلبه اي فتـاة قد أتقدم لها .. اي شيطان سيأتيني بـه ؟

على اي حال.. على اي حال انها امرأة . امرأة وتملك (...) نعم انهـا تملـك ، وهذه حقيقة . كمـا ان والدهـا من اكبـر الاثريـاء . هذه حقيقة ثانية . اما الاهم من هذا وذاك فهـي الوظيفـة التي ستتأمن فور زواجي منها .

مهـازل ..

منذ الليلة الاولى شعرت وكأن سكينا تنغرس في صدري حينمـا اشعرتني بأحتقارهـا الشديد لـي .

انه نفس الاحتقار الذي قابلني بـه الرفاق في الخلية حين اجتمعنـا في « رام الله » للمرة الاولى ..

وكرهت كل شيء ..

حتى هذه البشعة تحتقرني ؟!

حتى هذه البلهاء ؟!

ودارت الارض بي حتى كدت اطلقهـا منذ الليلة الاولى . لكـن حياتي السابقـة كانت قد علمتني .. علمتني الا ابوح بكل ما يجـول في صدري . فسكت واظهرت لهـا انني احبها ، وانها أغلى عندي مـن الوجود كله .

ماذا افعل غير ذلك ؟

ان اقل كلمة سيئة كانت ستزيـد النار اشتعالا ، وسـوف تقربني من البطالـة الابديـة والجوع الجهنمي . ان اقل كلمـة سيئة كانت ستقلب حياتي رأسا على عقب . ستفسد كل ما كنت

اخطط لـه في احلام يقظتي . وستثبت انـي لم استفد مـن الماضي وانني لا ازال ثورا بقرنين كبيرين .
في الليلة الثانية عدت لملاطفتهـا لكنها عادت تصدني. قالت انني ما كنت يومـا الا ماسح احذيـة قذر .
في الليلة الثالثة قارنت ما بيـن ابـي ضئيل الحجم ، وابيها الثري . في الرابعـة عيرتني بأمي التـي تجمع روث الحيوانات من المزارع والطرقات . وظلت هكذا ثمانيـة ايام ، الى ان منحتني جسدهـا في الليلة التاسعة ، بعـد ان حرقت شفتيهـا وكـل قطعـة من جسدها البشع بقبلاتي الحاقدة المجنونـة . فقـد احسست بعـد ان اصرت علـى احتقارهـا لي ـ ان علـي ان ادمرها . . كنت اريـد ان أذل كبرياءها . أريـد ان أنتقم لرجولتي ولامي وابـي وماضي الكريه الاسود ، وللجوع الذي كان ينتظرني خلف البـاب . وكنت قبل كـل شـيء اريـد ان احطمهـا ، واحطم كل مـا ينتمي اليهـا او الى ابيهـا المرابي .
نعم . . كنت اريد ان افعل كل هذا . وقد فعلت .



تك . تك . تك .
سمع عبدالتواب نقرا على الباب فتذكر انه مـا زال فـي المرحاض . وعلى الفور أدرك انـه قد انتهى من البول منذ اكثر من دقيقتين . لذلك بسرعة ، فتح صنبور الماء ، غسل مؤخرته ، وقف ، ثبت أزرار البنطال ، ومد يده نحـو مقبض الباب ليخرج ، الا انه عاد وتوقف من جديد امام عبارة كانت تستقر بالقـرب من يده :
« سنذبحكم أيها الفلسطينيون »
مهـازل . .
ثم فتـح باب المرحاض العمومي وخرج .

الفصل الثانــي

انفجر الموقف كله مرة واحدة . مرة واحدة انفجر ..

فحينمـا عاد عبدالتواب الى بيته ، وفتحت له زوجتهالباب وعلى وجهها تكشيرتها المعتادة ، احس فجأة بأن عليه ان يصفعها، وقـد رفع يده فعلا .. فعلا رفع يده ، ثم عـاد وأنزلهـا مـرة اخرى وهو يكز على اسنانه لشدة غيظه ، ولمـا سألته زوجته : لماذا سحنتك مقلوبة ؟

صرخ فيهـا :

ـ انصرفي عن وجهي .

وحينما ابتعدت وهي تبدي امتعاضها منه عاد وصاح :

ـ اسمعي . افتحي الثلاجة وهاتي لي زجاجة بيرة .

ثم اخرج من جيبه علبة السجائر .. (صابر يقول بانني انتهازي ؟! لكـن ماذا يفهم في الحياة هـذا الجرو ؟ جرو .. صحيح انه جـرو)

ثم جلس على الكنبة ، وهو يشعـر بغصة تتجمع في حلقه، لدرجـة انهـا تكـاد تخنقه . نفث دخان سيجارته ، ثم تحسس جلد الكنبة الناعم ، وقال بصوت مرتفع :

ـ المهم هو هذه الكنبة . المهم ان لا انام على حصيرة ، وان

لا اعيش عيشة الجرو صابر ..

(ما بال هذه الملعونة قد تلكأت ؟)

ـ دلال .. اين انت ؟ الم اقل لك بأن تحضري لي زجاجـة من البيـرة ؟

لـم يسمع جوابا ..

ـ دلال .. دلال ..

لم يبد ان شيئا ما قـد تحرك في الغرفة . قام كالمجنون ، عبر الصالون ثم اتجه الى غرفة النوم فوجدها جالسة على طرف السرير تنظر اليه بحقد صامت .

ـ لماذا لا تردي ؟

ـ ...

قبض على ذراعها ، ثم جذبها نحوه بشدة : صماء ؟

لم ترد ايضا .. فقط ظلت تحدق فيه بنفس النظـرات الحاقدة الممزوجة بالسخريـة والاحتقار . لم يتمالـك عبدالتواب نفسه ، فانهال عليهـا صفعـا وركلا بيديه ورجليه .. بيديـه ورجليه انهال عليها ، ومع ذلـك لـم تتحرك ولم يبد عليهـا ان جسدها قد مسَّه أحد . الشيء الوحيـد الذي فعلته هو تلـك النظرات الثلجية ، التي تؤكـد اشمئزازها من الرجل الذي كـان يقف امامهـا ويضربها بقسوة ، لذلك حينما احس عبد التـواب بالتعب واخذت انفاسه تتلاحق ، بصق في وجهها ثم اتجه الـى الثلاجـة :

ملعون ابوك .

ثم اكمل في نفسه : (مومس حقيرة) !

وتناول زجاجة البيرة ، ثم اتجه الى الكنبة من جديد ، عاد واشعل سيجارة اخرى . تناول جرعة كبيرة من البيرة ، تنفس بعمق ثم عـاد يردد في نفسه : (المهم هو هذه الكنبة الناعمة. المهم ان لا أنـام على حصيرة وان لا اعيش عيشة ذلـك الجـرو صابر) . لكـنه بعـد لحظات وجد نفسه يقول بصوت مرتفع :

اللعنة على عمان كلها . حتى الحياة الكريهة التي عشتها في رام الله ، كانت ارحم من هذه الحياة هنا !

★ ★ ★

كانت مدينة (رام الله) قبل عام ٦٧ كعروس في ليلة زفافها . وكان كل الناس يشتهون زيارتها .. كانت بستانا كبيرا يعج بالمتنزهات والورود والهواء المنعش والجميلات والسياح والاشجار الباسقة الخضراء . وكان الناس يذهبون اليها في الصيف لينفضوا عنهم متاعب العام كله . لكن رام الله كانت بالنسبة لعبدالتواب شيئا آخر .. كانت الجحيم عينه لدرجة انه كثيرا ما تمنى لو انه يتخلص منها بشكل من الاشكال.. ففي تلك المدينة الفلسطينية شهد عبدالتواب طفولته المريرة المريرة . فقد كان عليه ان يزورها عصر كل يوم بعد الانتهاء من المدرسة وعلى ظهره صندوق « البوية » ليشتغل ، ويساعد اباه على تربية اخوانه الصغار ، ويساعد نفسه ايضا في الخلاص من مذلة الفقر . وبالطبع كانت الطريق شاقة من القرية الى المدينة فكان عبدالتواب يصل اليها محطما تماما . لكنه في النهاية تعلم كيف يخدع والده ضئيل الحجم ، فصار يركب الباص في الذهاب وفي الاياب . بل واكثر من هذا ، فقد تعلم كيف يخبىء كل يوم قرشا او قرشين في جوربه المهترىء . وذلك لكي يصرف على نفسه في فرصة الغذاء في المدرسة كبقية زملائه الصغار . لكن حتى هذه الحيلة لم تكن تمر على والده ضئيل الحجم بسهولة. فقد صدف ان نسي عبدالتواب مرة وخلع حذاءه صدفة فسقط القرش من خلال فتحة كبيرة في اسفل جوربه . وفي ذلك اليوم ذاق علقة ساخنة علمته ان لا يضع القرش في اسفل الجورب مرة اخرى ، مما اضطره بالتالي الى ان يخبيء حصته المسروقة من مسح الاحذية في مكان جديد كل مرة .

كل هذا لــم يكن مهما بالنسبة للحقيقة الكبرى التي تعلمها عبدالتواب من الحياة والناس منذ تلــك الفترة المبكرة من حياته. لقد تعلم منذ الطفولة ان الحياة قذرة واذا اراد المرء ان يعيش فيها فعليه ان يكون قذرا هــو الآخر .. عليه ان يعقــد معها صفقات رابحــة حتى يتمكــن من ان يدوس فوق ترابهــا بصلابة ، ويتمتع حتى الجذور بمــا ينتجه هذا التراب .

فحينمــا كان عبدالتواب يمسح حذاء ما كــان يشعر بأن صاحب هذا الحذاء قذر . لانه لو لــم يكن قذرا لرثا لحاله وناوله دينارا كامــلا بدلا من قرش او قرشين ، او لربمــا بحث لــه عن وظيفة صغيرة ونظيفــة يربح منهــا عيشه بسهولة اكثر . ولو لم يكــن قذرا كذلك ، لتصور نفسه اللحظة انه كــان من الممكــن ان يكــون هو نفسه الذي يمسح أحذيــة الآخرين ، لو قدر لــه مثلا ان يكــون ابنــا لاب آخــر مثل والد عبدالتواب ضئيل الحجم .

« ان الحياة قذرة ، واذا اراد المرء ان يعيش فيها ، فعليه ان يكــون قذرا هــو الآخر »

كان هــذا الدرس قد حفظه عبدالتواب منذ الطفولة . بل وحفره في ذاكرته حفرا . وصار يطبقه عمليــا مع زملائه فــي المدرســة ومع امه وابيه واخوته في البيت . المسألة واضحة .. واضحة تماما .. فحينما كان عبد التواب يقف امام العمـــارات الشاهقة، كان يتحسر .. يتحسر كثيرا: لمـــاذا لا يسكـــن هــــو واهلــه احدى هذه العمــــــارات ؟ لمـــاذا لا يملــك والده سيارة مثل سيارة مديــر المدرســة نفسه .. مديــر المدرســة بكل ابهته ووجهه اللامع السمين ؟ نعم .. لماذا يملــك الاغنياء كل شيء بينمــا نحــن لا نملــك شيئا ؟ لماذا يولد بعض الناس وهم اغنياء بينما يولد آخرون وهم فقراء ؟ لمــاذا لا ينعم عبد التواب مثل غيره من الاطفال بملابس زاهية اللون وحذاء جديد ؟ او على الاقل لماذا لا يتخلص من هذا الصندوق الاجــرب الذي كتب عليه ان يحمله كل يــوم ويذهب الى رام الله ليمسح احذيــة الآخرين ؟

لقد شعر عبدالتواب بتفاهة الحياة منذ الطفولة . وقد ذاق مرارتهـا بلسانه وعقله وقلبه .. بقلبه وعقله ولسانه ذاق مرارة الحيـاة .

« ان الحياة قذرة » والا لماذا تلبس امه هذه الخرق السوداء الباليـة ؟

لماذا تذهب كل صباح الى البرية لتحضر حزمة من الحطب ؟ لماذا تجمع روث البقـر والحمير وتجففه من اجل موقـد النار ؟ لماذا لا تكـون كواحدة من سيدات رام الله اللواتي يراهن كل يوم .. فساتين مزينة ، عطور ، قامات ممشوقـــة ، مساحيق ، سيارات ، لمـاذا ؟

« ان الحياة قذرة .. » وحتى معلم اللغـة العربيـة الـذي كـان عبدالتواب يكـن لـه مودة خاصة واعجابا خاصا .. حتى هذا المعلم النحيل الذي يرتدي نظارة طبيـة سميكـة اكـد هـذه الحقيقـة ذات يوم حينمـا قال امـام طلاب الصف : ان لم تكن ذئبا اكلتك الذئاب . والمعنى بالطبع واضح . والمعـلم هـو الذي قاله وليس عبدالتواب . نعم .. ان معلم اللغـة العربية هو الذي قاله فـي تلـك المرة . ولكـن نيابة عنه هو .. عن عبدالتواب.

★ ★ ★

غريبة كانت تلك التجربة .. كانت تجربة غريبة حقا .

فذات يوم حينمـا خرج عبدالتواب من مكتبة المدرسـة بعد ان استعار منهـا « البؤساء » لفيكتور هوغو وجد نفسه وجهـا لوجه مع (نسيم) .. كان نسيم هذا فتى طويـلا يتمتع بحدبـة كبيرة في ظهره. لا يضحك ابدا ، واكثر شعره ابيض. اقتـرب نسيم من عبدالتواب وسار بجانبه ، فأحس عبدالتواب بفرحـة طاغيـة تجتاح كيانه كله .. انه يعيش في المدرسة بلا اصدقاء . يشعـر انه منبوذ في هذه المدرسـة اللعينة . فأكثر الطـلاب والمعلميـن يعرفون انه بعـد انتهاء الحصص يذهب فورا الـى

« صندوق البويـة » .

ورغم ان اكثرهم فقراء الا انهم مع ذلـك كانوا ينظرون اليه بفوقية واضحة . على اي حال ليس هذا بالضبط هو ما جعـل عبد التواب يشعر بكل هذا الفرح الجامح ، ولكن لان نسيم نفسه يكـاد يعتبـر باجمـاع الصف كله لغزا محيرا ، وكل طالب يتمنى صداقته ، او حتـى الحديث معه .

ــ ما هذا الكتاب ؟ البؤساء ؟ أرى يا عبدالتواب انك تقرأ كثيـرا .

تلعثم عبدالتواب وهو يبحث عن جواب مناسب :

ــ الحقيقة انني احب القراءة .. احبها كثيرا .

ــ لكن قراءتك تكـاد تكون محصورة في الادب .

ــ انني استمتع بقراءة القصص والروايات واحب نجيـب محفوظ كثيرا . انه يكتب عن ناس عاديين واحيانـا يكونــون فقـراء ..

حدجه نسيم بنظرة صارمة كاد قلب عبدالتواب ينخلع منها . لكنه بعد لحظة قصيرة عاد وربت على كتفه قائلا :

ــ ولكن .. هناك اناسا غير نجيب محفوظ .. اناســا تخصصوا وكتبوا وناضلوا وماتوا في سبيل الفقراء .. الا تعلـم ذلـك ؟

حدق عبدالتواب في زميله ببلاهة :

ــ من هم هؤلاء الناس ؟

ــ ماركس مثلا ولينين .. هؤلاء هم الزعماء الحقيقيــون للبروليتاريا والذيـن يستحقون منـا القراءة والالتزام بمبادئهم ..

وكأن نسيم قـد أحس انه اسرف في الكلام مع عبدالتواب . فتوقف عن حديثه فجـأة ، ثم صافح عبدالتواب مودعا :

ــ على اي حال سألتقي بـك مرة اخرى .

ثم مضى وترك عبدالتواب وفمه فاغر ، ورأسه يضــج بالمطارق ، واذناه تنتفخان ، وقلبه يدق بعنف .. كان كل شـيء

فيه قد اصبح منفعـلا تمامـا . لقد اذهله نسيم بحديثه القصير المنعش هذا .. كان يحس وكأن احدا ما قـد دفعه صدفة الـى بركـة ماء بارد .. ما هذا الكلام الذي كـان يقوله نسيم عـن الفقراء ؟ من هو ماركس هذا ؟ ولينين ؟ والبروداريا .. ما هـي البروداريا هـذه ؟

واغتاظ عبدالتواب من نفسه .. ليته سأله عـن كل هـذه الاشياء ، ما دامت تتعلق بالفقراء امثاله ، وما دام ان نسيم قـد اختصه هو بالذات ليقول له مثل هذا الكلام . لكن غيظه كـان قد بلـغ مداه حينمـا تذكـر فجأة انه لم يخبر نسيم بعبارته الاخيرة .. آخر عبارة اكتشفهـا هـو وسجلهـا في دفتره الازرق الصغير .. عبارته التي أحس حينمـا طرأت على ذهنه وكأنه قد شبع فجأة ، ودفع القسط المدرسي كامـلا ، واشترى ملابس جديدة ، وحطم صندوق البويـة وصار التلاميذ يحترمونـه ويشاركونه في احاديثهم ونكاتهم الصغيرة .. عبارته القائلة :

« ان المال يعز من يشاء ، ويذل من يشاء » . احس عبدالتواب بالاسى ينحـر صدره فجـأة لانه لم يقلهـا امام نسيم لكي يـرى صداهـا في وجهه ، وليقتنع به نسيم اكثر .



كان يوما من ايام رام الله الماطرة ..

كانت الريح تضرب الاشجار والدور بقسوة بالغـة والشارع قـد خـلا من الناس تماما ، حتى بدت المدينـة وكأنهـا مهجورة

قلة من الطلاب والمعلميـن هم الذيـن حضروا الى المدرسة في ذلـك الصباح . وبعـد اقل من نصف ساعـة صرفهـم المديـر جميعا . فاقترب نسيم من عبدالتواب :

ــ الحقني بسرعة .

وراح نسيم يركض بشدة والريح تصفع وجهه بعنف، فتبعـه

عبدالتواب دون ان يدري سببا لذلك . كانت لهجة نسيم رصينة بحيث بدت وكأنهـا امر لا يناقش .

ظلا يركضان يركضان الى ان وقف نسيم امام احدى المقاهي الشعبيـة الصغيرة ، فأشار لعبدالتواب ودخلا .. نادى نسيم :

ـ هات يا ابو عبده .. اثنين شاي عجمي .

جلسا على كرسيين صغيرين من القش في احد اركان المقهى، واخذا يراقبان الوجوه دون ان يتفوهـا بحرف واحد .. كانت وجوه الرواد عاديـة من ذلـك النوع الذي يصادفه الانسان في ورش البناء ومعامل الحدادة وتصليح الطرق .. كانوا يلعبون ، يدخنون، يضحكون ويطلقون النكات البذيئة .

احس عبدالتواب بشيء ما يرتجف في داخله .. انه لـم يتعـود بعد على جو كهذا . ثم ماذا يريـد منه نسيم ؟ ماذا ..

ولم تطل تساؤلات عبدالتواب ، فقد اخرج نسيم علبـة السجائر من جيب معطفه ، وقدم لعبدالتواب واحدة ..

ـ اسمح لي . انا لا ادخن .

ألح نسيم :

ـ دخن يا رفيق . ان البرد والشاي لا تكمل لذتهمـا دون سيجـارة .

حاول عبدالتواب ان يبتسم ، لكن مشروع الابتسامة تجمد على شفتيه الباردتيـن ..

كان يشعر ان هناك شيئـا مـا خطيرا يريد نسيـم ان يحكيـه له .

ـ لماذا انت خائف ومرتبك هكذا ؟

ـ انـا ؟

ـ طبعا أنت .

ثم عاد يقول بسرعـة :

المسألة يا عبدالتواب هي انني اراقبـك منذ فترة طويلة . وقد درست اوضاعك جيدا . انت تروقني .

لماذا تحدق في كالابله هكذا ؟ نعم .. انت تروقني . لهـذا قررت ان اقدم لك خدمة .. سأدخلك في الحزب .

ارتجف عبدالتواب : الحزب ؟

ـ نعم .. الحزب . خذ واقرأ هذا الكتيِّب .

ثم تناول كراسا صغيرا كتب على غلافه « لينين » . وضعه بحذر في جيب عبدالتواب ثم قذف آخر جرعـة من كوب الشاي في جوفه ، وقام . وبعد لحظات قام عبدالتواب وراءه .

★ ★ ★

في ذلك اليوم ..

حينما دخل عبدالتواب البيت ، ووقع بصره على خاله الذي كان يملـك دكانـا كبيرا لبيع الخضار والفواكه فـي رام الله ، والذي كان لا يحضر عندهم الا لامر بالغ الاهمية ، احس عبدالتواب ان في الامر شيئا .

ـ اهلا عبدالتواب . اقعد .

كان صوته جافا ووجهه المنتفخ يوحي بانه سيقول شيئـا مـا .

ـ اسمع يا ابن اختي لقد اصبحت شابا ، وقريبا سنزوجك. لهذا فأنت ستمتنع منذ الآن عن حمل صندوق البوية .

كاد عبدالتواب يطير من الفرح ، لكنه فضل السكوت . فها هي اخيرا تتحقق امنيته العظيمة . انه سيصبح مثل غيره مـن الطلاب ، ولن ينظروا اليه بعد اليوم تلك النظرة الدنيئة .

ـ انت ستقدم الثانوية هذا العام يا ابن اختي . وقد قررت ان اصرف عليك من جيبي الخاص . هم عبد التواب ان يقـوم ويقبل يد خاله ، ووجهه المنتفخ وكرشـه وقميصه المتسـخ وحذاءه و ..

ـ ولكن تذكر انك ستسدد كل هذه النفقات بعد التخرج.

سوف تدفع كل قرش انفقته عليك يا ابن اختي . اتفهم ؟
وقام خاله ..
نظر عبد التواب الى قامته القصيرة البدينة، ثم نظر الى ابيه ضئيل الحجم، الذي كان يجلس صامتا ، فأحس باشمئزاز مفاجيء يملأ نفسه وتمنى لو يستطيع تكسير كل شيء حوله حتى اباه وامه واخوته وخاله .. تمنى لو يستطيع ان يخنقهم او يسممهم او يغرقهم في احدى البرك القذرة، لينتهي من فقرهم وقرفهم وسخافاتهم ..

★ ★ ★

ـ اهذه هي الحياة ؟ اهذه ..
ـ ماذا بك يا عبد التواب ؟
ـ لا شيء ولكنها الحياة يا نسيم . انها حياة قذرة واذا اراد المرء ان يعيش فيها، فعليه ان يكون قذرا هو الاخر .
وتطلع في وجه زميله ..
ـ انه المال يا نسيم .. المال يعز من يشاء ، ويذل من يشاء .
وعاد يتطلع الى وجه زميله مرة اخرى ، ليرى تأثير هذه العبارات الرنانة في وجهه . لكن شيئا جديدا لم يبد على وجه نسيم بحيث يوحي ان عبارات عبد التواب قد استوقفته.
فأحس عبد التواب بخيبة مريرة : ان نسيم هذا يبدو كالحصن المنيع، وليس من السهل اقتحامه .. ابدا ليس من السهل اقتحامه .
ـ المسألة يا رفيق هي ان واقعنا مريض . لذلك علينا نحن ان نسعى الى تغييره بواقع افضل. علينا ان نناضل من اجل الكادحين البؤساء . من اجل الحزب، من اجل انتصار البروليتاريا . والحقيقة انني ما جئت اليك اليوم الا لهذا، فأنت

الان اصبحت عضوا مؤازرا، ولا بد ان تفعل شيئا حتى اقدمك لرئيس الخلية، لتصبح بعد ذلك عضوا عاملا .. اريد ان تكون رفيقا حقيقيا يا عبد التواب . الا ترغب في ان تكون رفيقا حقيقيا؟

ثم مد يده الى شنطة الكتب التي كان يحملها، اخرج منها دوسية صغيرة كانت تنتفخ بأوراق مطبوعة صفراء، وضعها في شنطة عبد التواب، ثم اقترب منه وهمس :

ــ عليك ان تنشر هذه المنشورات في المنتزه العام منذ الصباح الباكر .

تطلع عبد التواب حوله، فوجد جميع رواد المقهى كعادتهم يلعبون، يدخنون، يضحكون، تناول سيجارة من علبة نسيم، اشعلها، ثم نفخ الدخان في وجه نسيم بشكل مقصود.

ــ هيا بنا ؟

ــ هيا ..

سارا معا بضع خطوات ، ثم اعتذر نسيم وحاول الانصراف، الا انه قبل ان يفعل ذلك اوصاه قائلا : كن حذرا يا رفيق .

ــ ولكن ..

ــ لكن ماذا ؟

ــ لا شيء .. فقط كنت اود ان اسألك عن هذه الكلمة اللعينة التي ترددها كثيرا .. كلمة « البرو..تا..ريا» هذه !

★ ★ ★

« الساعة السادسة سيكون الاجتماع الاول يا رفيق.. سننتظرك في بيتي » .

تذكر عبد التواب عبارة نسيم الحادة، نظر الى ساعته ، هرول اكثر، اكثر : لا يمكن التأخير منذ الاجتماع الاول.

كان مضطربا والبخار يتصاعد من فمه لشدة البرودة. وما ان وصل البيت حتى كاد يسقط اعياء . القى نظرة اخيرة على الساعة، فأكتشف انه لم يتعوق اكثر من خمس دقائق. نقر على

الباب الخشبي ثلاث نقرات كما اوصاه نسيم فجاءه الصوت:من؟

ـ انا عبد التواب . فتح الباب فسمع صوت صريره المزعج. كانت الغرفة قديمة متداعية في احد ازقة رام الله وشبابيكها كلها مستورة بأوراق الجرائد . نظر عبد التواب فرأى ثلاثة وجـــوه تحملق فيه بصمت . وشيء ما غريب يرتسم فوق وجوههم .

ـ آسف لقد تعوقت قليلا . باص القرية هو السبب .

لم يعلق احد بحرف .

كان في نظرتهم شيء ما اقرب الى التجاهل . واحدهم كان يحدق فيه بصلافة .

القى عبد التواب نظرة صغيرة على ملابسه، فرأى ان الطين يغطي مساحات واسعة من البنطلون، وان حذاءه يغطس في المـاء غطسا ، وشعره ينزّو ..

ـ ان المطر شديد في الخارج .

قالها عبد التواب ليداري خجله، وليكسر وحشـة هـــذا الصمت الجليدي الذي كان يتربع فوق وجوههم :

ـ اجلس يا رفيق . اجلس .

ثم اشار نسيم الى الموجودين قائلا :

ـ رفيق احمد . رفيق حسان . رفيق سعيد . وهذا هو الرفيق عبد التواب . جلس وهو يشعر بالخجل يعتصره، والضيق والخوف يفترسانه افتراسا . لكنه بعد ربع ساعة ألف الجـو ، اخذ يدخن معهم السجاير، يشرب الشاي، يبتســم ابتسامتـه اللزجة، ويستمع الى النقاش الدائر بينهم حول الاحتلال، حتــى انــه يومها وجد في نفسه الجراة ليقول فجأة : لا بد من مقاومــة العدو بشتى الوسائل. لا بد .

★ ★ ★

كان ذلك العام خصيبا حافلا بالنسبة لعبد التواب.. ففي ذلك العام نشر عبد التواب اول مقالة له في احــدى الجرائـــد

المحلية . بعدها كانت محاولاته لكتابة الشعر. الا انه ادرك مبكرا عقم محاولاته تلك فاتجه الى النقد نهائيا. وقد ساعده في ذلك ثقافته الواسعة وحقده الشديد على المبدعين الحقيقيين من الادباء والشعراء . وكما اكتشف عبد التواب مبكرا (ان الحياة قذرة، وان المرء اذا اراد ان يعيش فيها فعليه ان يكون قذرا هو الاخر) ، كذلك اكتشف الطريق المؤدي مباشرة الى الشهرة فسلكه غير عابيء بشيء. اكتشف ان عليه ان يجلد غيره من الادباء على صفحات الجرائد والمجلات فصار يتناول كل كتاب ادبي جديد وينهال عليه بالسياط والرجم ، حتى صار معروفا بهذه الصفة لدي جميع المثقفين كان يريد ان ينتقم من كل شيء نيحطمه تحطيما ، لهذا فقد مارس ساديته كاملة فوق صفحات مجلة « الادب الجديد » المقدسية . . هاجم عبدالعظيم قمر واحمد ابو مجذوب وصابر مطر وغيرهم . وصار احيانا يهاجم الحزب خفية بعد ان اصبح رئيس خلية . وفي احيان اخرى يتبجح بأنه شيوعي . اما المقاومة فقد كانت اسطوانته المفضلة التي لا يمل من ترداده‍ا امام الرفاق ، مع انه لم يكن يؤمن كثيرا فيما يقوله. ليس هذا فحسب . ففي ذلك العام اصبح عبدالتواب مساعدا لمدير المدرسة التي كان معلما فيها . كما انه رزق بأول طفل له . لكن الشي الوحيد الذي كان يقف حجر عثرة في طريق احلامه وطموحاته ، ويبدد امنه وسعادته واستقراره هو زوجته التي ظلت تصر على معاملته بفوقية ، والتي لم يجرؤ لحظة على التفكير في طلاقها خوفا من خاله . فقد صدف ان ضربها عبدالتواب ذات مرة فذهبت باكية الى ابيها . جاءه هذا متهددا متوعدا : في مرة قادمة اذا فعلتها يا ابن اختي سأكسر يدك . انت تعض اليد التي امتدت اليك بالاحسان . ولكن عليك ان تتذكر باستمرار يا ابن اختي انني ما زلت حيا ارزق . وما زال باستطاعتي ان اجردك من كل ما حققته من مكاسب . نعم . . بامكاني ان اطردك من الوظيفة ، بل واسجنك ايضا. اتفهم يا ابن

اختـــي ؟

عند ذلك وجد عبدالتواب نفسه يتذكـر ماضيه التعس كله في رمشة عين كما تذكر ان كل شيء يمكن ان يضيع فـي لحظة واحدة فخـر على ركبتيه لكي يقبل يد خاله ورجليه ، الا ان خالـه مضى قبل ان يمكنه من ذلك، فعرف عبدالتواب عندئذ انـه لن يجرؤ مرة اخرى على مس شعرة من زوجته ، كمـا ادرك انهـــا ستكون جحيمه الابدي الابدي .



هبط ذلك الصباح ثقيلا ، متوترا ، مشحونا ، فقد كانـــت الاعتقالات في الارض المحتلة على اشدها . وكذلك مضايقات النظام الاردني للمقاومة في الضفـة الشرقية . لذلك كان الناس ثائريـن في الضفـة الغربية والشرقية وفـي حيفـا ويافـا وغزة وكـل مكـان . كـان الجميع يشعرون بان عليهم ان يفعلوا شيئا . لذلك ما ان وقعت عينا عبدالتواب على عيني نسيم ، حتى ادرك بالضبط مـا يريد منـه .

ـ اليوم يومك يا عبدالتواب .

ـ ماذا تريدني ان افعل ؟

ـ انت تعلم ان الحزب سينظم مظاهرة كبيرة ضد الاحتـلال والنظام الاردني هذا الصباح . ودورك بالطبع معروف . لا بد ان تثير طلاب المدرســة ، تنظمهم وتسير بهم الى ثانوية البنات ومن ثم الى بقية المدارس لنسير كلنا بعد ذلك في مظاهرة واحـــدة صاخبـة .

احس عبدالتواب بالرعب من الفكرة . فكلمـا كان يكلف بمهمة رسميــة من الحزب كان يشعـر بثقل شديد يجثم على صدره . لكن المهمة هذه المرة كانت اكبر من ان تطاق . انها مصيبة . . مصيبة حقيقيــة . فمستقبله ومشاريعه وطموحاته وانجازاته كلهـا يمكن

ان تنهار دفعة واحدة اثر هذه المظاهرة اللعينة . لكنه مع ذلك لم يستطع الا الاذعان . كان طلاب الثانوية في ذلك اليوم بحاجة الى اقل اشارة لينطلقوا في المظاهرة .

عود كبريت صغير وتشتعل رام الله ويتفجر كل شيء . لذلك ما ان ابتدأ عبدالتواب يعزف على وتر الاضراب ، حتى امتلأت المدرسة جلبا وضجيجا . وراح الطلاب يحرضون بعضهم بعضا، الى ان انتظموا جميعا وساروا في المظاهرة ، وعبدالتواب بينهم يهتف ومعه بعض المعلمين الآخرين ، وكلهم ينادون بطرد الاحتلال وسقوط الملك .

ولكن ما ان مضت بضع دقائق حتى وجدوا انفسهم يقفون وجها لوجه مع بعض الجنود الصهاينة ، فأبتدات الفوضى .. راح المتظاهرون يقذفونهم بالطوب والحجارة بينما الجنود يحاولون تفريقهم بالعصي واعقاب البنادق . دب الذعر ، هرب بعضهم ،تقدم آخرون ، اطلق الرصاص ، سقط جريحان، اعتقل بعض المتظاهرين بينهم عبدالتواب، ثم تشتت شمل المظاهرة . بعد ذلك بايام معدودة فقط .. كان عبدالتواب يحمل اطفاله وزوجته وبعض متاعبه في احدى الشاحنات ، ويتجه الى عمان مطرودا من الوطن، وهو يحمل لقب « مبعد » !

الفصل الثالث

يوم الخميس قذر .. انني اعرفه جيدا .

ونظر عبدالتواب من النافذة .. كان الثلج يتساقط فــوق الدور والاشجار والطرقات فــي عمــان . بعض الاطفــال كانــوا يتقاذفون كرات الثلج ويضحكون .

الشارع يكاد يكون خاليا من المارة . ففي يوم كهذا تصبــح عمــان مشلولة تمامــا .. ان شتاء عمــان لا يختلف كثيرا عن شتاء رام الله . اكثر السيارات تتوقف عن الحركة . اكثر التليفونــات تصاب بالعطل . اكثر الدكاكين تغلق ابوابها . حتى الخبز في يــوم كهذا يصبح الحصول عليه صعبا .

يوم الخميس قذر .. انني اعرفه جيدا .

(زواجي من هذه التافهــة التي تتمدد الان على السرير كان في يوم خميس . واجبي الاسبوعي الثقيل اؤديه لها ليلة الخميس. اعتقالي في رام الله كان يوم خميس . الزعران ضربوني في يــــوم خميس . وحتمــا لا بد ان تعرفي الى الجرو صابر كان فــي يــوم خميس) .

وقرب عبدالتواب الصوبا حتى كادت تلتصق بساقيه ، ثــم تساءل بينه وبين نفسه : كيف تعرفت الى صابر ومروان ؟

واشعل سيجارة ..

(انهـا مظاهرة الشيوعيين ، تلـك المظاهرة الحقيرة .. تلك التي كانت سبب طردي من رام الله ، ورحيلي الى عمـان ، ومن ثم تعرفي الى الجرو صابر ..

فحينمـا جئت الى عمـان كان اسمي قد سبقني اليها مـن خلال ترحيبهم بـي كمبعد بتهمـة مقاومة الاحتلال . ومن خلال نقدي وكتاباتي المتلاحقة في مجلة « الادب الجديد » التي كانـت تصدر في القدس . ففي اول لقاء لي مع صابر عاتبني على نقدي لاحدى قصائده المنشورة في « الادب الجديد » فأحسست بانـه نوع خاص من البشر .. كان فتيـا بريئا والصدق يقطـر من كـل قطعـة في جسده الهزيل . وكـان ان اتفقنـا على موعـد آخـر في خمارة الاحزان ، وهنـاك عرفني علـــى مروان ثـم تكررت لقاءاتنا و ..) .

ــ والآن .. الا تريـد ان تخبرني ماذا قالوا لك ؟

ــ من تقصدين ؟ المخابرات الاردنية ؟

نظرت اليه وكأنها تريـد ان تدخل في اعماقه لتعرف مـا يجـول في خاطـره :

ــ ومن غيرهم اذن ؟

حاول ان يبتسم بسخرية ، لكنه فشل ، فنفخ صدره قليلا، ثم تحدث من خلال اسنانه :

ــ وماذا سيفعلون ؟ انهم يعرفون جيدا من أنا . انا عبدالتواب الفواعرة اكبر ناقد في البلد . اتفهمين يا امراة ؟

(على اي حال ان ما حدث لم يكن غريبا . لقـد كنت اتوقع كل شيء . بل وكأنني كنت انتظره منذ زمن بعيـد . كنت احس دائما وكأن عيونهم تطاردني وتسير خلفي ، وتتبع خطاي . ليس هذا هـو الغريب لكـن الغريب حقا هـو تلـك المعاملة .. انني لا اكاد اصدق انهم عاملوني بكل هذا اللطف .

الاستنكار مسألة ليست مهمة .. كنت اظن انني سأخرج من

المخابرات وبي احدى العاهات او على الاقل انهم كانوا سيفعلون بي كما فعلوا بالجرو حينما سجنوه .
ولكن من يثبت صحة هذه الرواية ؟ مروان هو الذي قال لي ذلك ذات مرة .. قال بان امراض صابر وحالته الصحيةالراهنة كلها كانت بسبب سجنه في « الجفر » . قال انه قد خرج محطما تماما ، لدرجة انه كان لا يكاد يستطيع المشي . لكن من يثبت هذه الرواية ؟ ان صابر نفسه لم يؤكدها . فحينما سألته ذات مرة عن حكاية سجنه ، نظر الي باستغراب لكنه عاد بعد لحظات وانزل عينيه وسكت .. لم يتفوه بحرف واحد. وبعد ذلك لم يتحدث عنها ابدا)

ـ قومي اصنعي لي فنجانا من القهوة .

ردت ببرود :

ـ هذا هو الشيء الوحيد الذي تجيده . القهوة والخمر والبهدلة .

ـ امتأكدة انت انني لا أجيد غير هذا !

نظرت اليه بتحد :

ـ هات ..

ـ غارات الليل مثلا .. الا اجيدها يا بنت خالي ؟

ثم ابتسم ابتسامته اللزجة ..

ـ غارات الليل ؟ اي غارات تقصد ؟

فضحك بسخرية :

ـ غبية . ستظلين طيلة عمرك غبية ، بنت غبي .

ـ انا غبية ؟ وابي ايضا ؟

ونظرت اليه طويلا .. طويلا نظرت اليه .. طويلا طويلا ، الى ان نهرها :

ـ قلت لك اصنعي لي فنجانا من القهوة المرة .

لم تتحرك :

ـ اقسم انني لن اقعد لك في بيت . فقط حينما يحضر

ابـي الى عمـان .

ـ هه .. وهل تعتقدين ان اباك يرضى بهذا ؟ مستحيل ، فهو لا يجيـد عمل شيء ابدا سوى استغلال الناس والربا .

جحظت عيناها قليلا :

ـ الربا ؟ تقصد ان ابي مرابي ؟

ـ وستين مرابي ايضا .

احست باشياء كثيرة تمور في داخلهـا .. اشياء تحتـرق وتتبخـر ، تتبخـر وتحترق .. فهذه هي المرة الاولى التي تسمع فيهـا ان اباها يشتغل بالربا . ومع ذلك فهي لا تستطيع ان تفعل شيئا ، فبكت .. بدموع غزيرة بكت. اما عبدالتواب فلم يجد شيئا يفعله ، قام واتجه الى النافذة ودون ان يدري وجد نفسه يصيح بعصبيـة :

يوم الخميس قذر .. قذر .. انني اعرفه جيدا .

الفصل الرابع

« انا عبدالتواب حسين الفواعرة اعلن براءتي واستنكاري لجميع الاحزاب ، وخاصة الحزب الشيوعي الهدام ،واعلن ولائي لجلالة الملك المعظم » .

قرأها صابر بصمت . احس بدهشة خفيفة . نظر الى عبدالتواب ، فالتقت عيونهما الاربعة لحظة ، عاد بعدها صابر وانزل عينيه في الجريدة .. .ان الامر ليس غريبا رغم انه مقرف . فقد كان صابر يعلم تماما ان عبدالتواب يمكن ان يفعل اي شيء .. اي شيء في سبيل ان يظل حيا يتحرك ، يأكل، يشرب ، ينام .

الشيء الوحيد الذي ازعج صابر هو تواجد عبدالتواب في غرفته في تلك اللحظة .. (لماذا اتى به مروان ؟ لقد تجنبته فترة طويلة . وهو يعلم انني لا احبه ، واضيق بوجوده . ماذا يريد ؟ اللعنة .. كأنه قد جاء خصيصا ليتباهى باعلانه القذر !)

ورمى صابر الجريدة ، تناول علبة سجائره عن الطاولة ، اخرج واحدة منها ، واشعلها دون ان يمد الى عبدالتواب او مروان كعادته .. لقد تعمد ذلك . تعمده تماما . وكأن عبدالتواب

قرأ ما يدور في نفسه ، فاخرج علبة سجائره ، تناول واحــــدة، واعطى مروان واحدة ، ثم اشعلهمـــا ورمى عود الثقاب علـــى الارض . لقد تعمد ان يرميه .. تعمد ذلك تماما . (لا بــــد ان الجرو قــد قرأ الاستنكار . وحتمــا ان مخيلته الدنيئة تسبني الآن وتشتمنـــي) .

كان هم عبدالتواب كله هو ان يرى تأثير الاستنكار علـــى صابر .. كان يريــد ان يسمع صيحــة الاستنكار . فقد كــان عبدالتواب دائما يحس وكأن صابر ضميره الشخصي ، بــل انــه في فترة من الفترات كان يعتبره ضميــر الشعب الفلسطينـــي كله . لذلك حينمــا التقت عيونهما مرة اخرى ، احس عبدالتواب بالحــرج . وكان لا بد ان يداري حرجه هذا فقال :

ـ صابر ... ماذا قال لك الطبيب ؟

بصق :

ـ لا شيء .. انه الســـل !

رفع مروان بصره وتطلع نحو صابر بدهشة واسى . الا ان وجهه الصلب صدمه فارتد بصره الى الارض من جديد ، ولم يتفوه بكلمــــة .

ـ ماذا ستفعل الآن ؟

قالها عبدالتواب ، وهو يحس بشعور من السادية حــاول جاهدا ان يكبحه قدر استطاعته .

ـ لا شيء انه مرض كغيره من الامراض . المهم هــو ان لا تقترب مني كثيرا حتى لا تصاب بالعدوى !

وامتلأ جو الغرفــة بالتوتر والسموم ودخان السجائر .. كان صابر يحس بالاشمئزاز . عبدالتواب كان يتحرق شوقـــا لسماع رأي صابر في الاستنكار . ومروان كان حزينا بعــــد ان سمع بمرض صابر .

فقد كان بينه وبين نفسه يعلم ان صابر مريض ، الا انه ما كان يتوقع ان السل هو مرضه . وحينما جاء الى غرفته هــــذا

المساء كان يريد مساعدته . الا ان معرفته المسبقة بأن صابر سيرفض، والجو المتوتر الذي ساد الغرفة منعه من الحديث .

ــ هذا المطر المشبوه .. ألن يكف عن الهطول ؟

ــ مشبوه ؟

ــ نعم . وأنت الا تراه كذلك ؟

وفهم عبدالتواب رأسا ماذا يعنيه صابر ، فأحس بغصة تقف في حلقه . غصة حقيقية كلقمة كبيرة يصعب ازدرادها .

(هذا الجرو .. ألن يكف عن التعريض بي ؟)

ــ اللعنة .. ان هذه الجرائد فارغة . لا يوجد فيها سوى اعلانات السينما وحالة الطقس وطلب سكرتيرات .

حينما نطق مروان بهذه العبارة ، كان كل همه ان يبدد الصمت قليلا ، من حدة هذا التوتر المزعج . لكن صابر ثار في وجهه :

ــ فارغة ؟ تقول انها فارغة ؟ يا للسخرية .. بل انها مليئة. مليئة اكثر مما تحتمل .

ان بين سطورها ما هو فوق طاقتها .

ثم نظر الى عبدالتواب ، فانفجر هذا صارخا :

ــ تقصد الاستنكار .. أليس كذلك ؟ انت لم تجرب المخابرات حتى تستهجن الامر . أنت لا تعرف وسائلهم في انتزاع اشياء كهذه . أنت ..

ــ بل انني اعرف ذلك كما اعرفك انت .. انني اعرف ذلك جيدا .

احتد عبدالتواب :

ــ بالعكس يا صابر . ربما كنت لا تعرف في هذه الامور شيئا . فالحزب زائف .. انه مجرد كلمات فارغة تطبع على الورق وتوزع كمناشير سرية . انه زائف يا صابر . والاستنكار في حالة كهذه يصبح عملا شريفا .

ــ شريف ؟ اغلب الظن ان الاستنكار كان نتيجة لحكاية

الشرف هذه . اليس كذلك ؟

كان مروان ينظر اليهما،ويحاول ان يعرف عن ماذا يتحدثان. الا انه لم يستطع ان يفهم شيئا .

– صابر .. ما الحكاية ؟

تناول صابر الجريدة ووضعها امام مروان :

– خذ . اقرأ

مر مروان بعينيه على السطور . قراها بسرعة ، نظر الى عبدالتواب ثم اخذ يضحك بشكل هستيري مفاجيء . اخذ يضحك ، يضحك ، يضحك ..

– امرك عجيب يا صابر .. عجيب ..

ثم واصل ضحكه مما ازعج عبدالتواب :

– مروان .. ماذا تقصد بهذا ؟

– لا شيء يا عزيزي . لا شيء. كل ما هنالك انني اشعر ان الموقف ليس غريبا . ابدا .. ابدا .

– ولكن .. ماذا تقصد ؟

– قلت لك بانني لا اقصد شيئا . انت حر .

ولاول مرة منذ بداية الجلسة ، احس عبدالتواب انه بات غريبا عنهما . ان مروان يقف منه نفس موقف صابر ، لكنه لا يريد ان يقول ذلك صراحة .. (اخص عليك يا زمن . اخص ..

ولكن ماذا يهم موقفهما مني ؟ وماذا يفهم هذان المغفلان في الحياة ؟ يكفي صابر انه لم يتعلم من واقعه شيئا . يكفي انه يعيش عيشة الكلاب ، مع ان باستطاعته ان يغير واقعه هذا. قصيدتان او حتى قصيدة واحدة في مدح الملك ستبعث حياته من جديد .. ستجعله يشعر ان الحياة ليست هي هذا القرف الذي يغطس فيه حتى أذنيه .. ستجعله ينسى مبادئه الهزيلة . او على الاقل ستشفيه من السل الذي يهري جسده .

ومروان ؟ ماذا يفهم هذا البرجوازي العفن ؟ ماذا يفهم في الحياة ؟

حقا ان الله يعطي اللحمة لمن لا يملـك اسنانا . آه .. لـو منحتني الاقدار ابا كأبيه . آه لو منحتني تلك الرفاهية التي يتمتع فيها، او حتى هذه الوسامة في وجهه الجميل وجسده الرياضي، ثم عشيقتـه رويدا ، ثم .. ابن الكلب ، انـه محظوظ بلا شك . ولكنه لا يعرف كيف يستغل فرصته . اخص .. عليك يا زمن) .

وكأن عبدالتواب اراد ان يسري عن نفسه قليـلا فنظر نحو المطـر المتساقط فوق زجاج النافذة وقال بمرارة :

ـ لا شك انكمـا تحقدان علي . اليس كذلك ؟

احس صابر للحظة بالتعاطف معه :

ـ على اي حال .. لا بد للفلسطيني ان يحقد . لان حقده المقدس هو الذي سيعيد له ترابه واشجـاره وكرامته وبيتـــه الضائــع .

ـ احقد يا صابر .. ولكن ليس علي انا .

تطلع نحوه بنظرات ملتهبة :

ـ بل عليك اولا ومن ثم على الآخرين .. كل الاخرين وحتى يعـود كل شـيء .

ـ ولكن .. ما ذنب الاخرين ؟

ـ اليسوا هم الذيـن صنعوا امثالك ؟ اليسوا هم الذيـن صنعوا اوجاع النازحين واللاجئين ؟ اليسوا هم الذيـن صنعوا الخيام الممزقة وبيوت الصفيح الصدىءفي مخيم البقعة والوحدات؟ أليسوا هم الذيـن اخرجوا الثورة من عمـان ؟ اذن فلتحل اللعنة عليهـم جميعـا .

تضاحك عبدالتواب :

ـ ارأيت ؟ ارأيت ان نظرتك للامور دائما قصيرة المدى ؟

ضرب صابر الطاولة بقبضة يده :

ـ لا .. انها ليست كذلك . ان حقـد الانسان الفلسطيني مقدس . وحتى في الآخرة .. ان الله نفسه لن يحاسبالفلسطيني على اي ذنب جناه في هذا العالم . ابدا .. لن يحاسبه لانـــه

معذور . انه يدافع عن وجوده ومصيره . ومن هنا فان حقده مقدس ، مقدس .

ــ يا رجل .. الا تعرف شيئا آخر غير هذا الحقد المجنون ؟

ــ انه ليس جنونا . انا احقد عليك مثلا . اتدري لماذا ؟ لانني احبك .. لانني لا اريد ان اراك وانت تتمرغ في الوحول . اما الآخرون الذين صنعوا مأساتي فان حقي الطبيعي ان احقد عليهم حتى يعود الي هذا الحق .

حاول عبدالتواب ان يضع يده على يد صابر ، ثم قرب وجهه ليحكي شيئا فابتعد هذا عنه واشاح بوجهه :

ــ قلت لك لا تقترب مني كثيرا لان السل مرض سريع العدوى .

ــ لا بأس . ولكن أتدري ما هي مأساتك يا صابر ؟ مأساتك الكبيرة هي انك لم تتعلم بعد ان الحياة قذرة . وان الانسان اذا ما اراد الاستمرار فيها ، فان عليه ان يكون قذرا هو لآخر .

ــ هه .. دعني منك ومن قذارتك .

واراد عبدالتواب ان يقول شيئا ، الا ان مروان كان قد اقترب منهما . وضع فناجين القهوة على الطاولة المتسخة وقال :

ــ دعونا من مناقشتكما العقيمة . هل سمعتها بآخر البلاغات العربية ــ الاسرائيلية عن اشتباكات الحدود في لبنان؟

تطلعا اليه ولم يتفوها بحرف ..

ــ اسمعا البلاغ : قامت تشكيلة من لابسات الميكروجيب بمهاجمة احد المواقع العربية . وبعد اشتباكات دامية عادت التشكيلة الى قواعدها سالمة عدا خمس بكارات .

لم يضحك أحد ، فعاد مروان يقول :

ويبدو ان احداهن قد حملت وانجبت غلاما اسمه « سام » .

لم يبتسم احد .. ظل الصمت المتوتر سائدا فاضطر مروان الى السكوت . السكوت المطبق !

الفصل الخامس

« قد يتراجع المرء اذا كـان لا يزال في بداية الطريق . ولكن ماذا استطيع ان افعل الان وقد قطعت كل هذه المسافـة ؟ هـل أتراجـع ؟ » .

تراجع .. لا تتراجع .. تراجع .. لا تتراجع .. تراجـع .. لا ..

كان عبدالتواب يسير بسيارته الفولكس البيضاء متجها الى « رابطة الكتاب » في جبل اللويبدة . كـان يسير ببطء شديد. شيء ما كالمسمار كان يدق فوق جمجمته :

« ان المريض بسفلس المخابرات قد يشفى ، ولكن ليس قبل ان يكـون جسده قد اهترأ »

ولكن عليه ان يشفى . عليه ..

واسرع قليـلا ، لكنه عـاد وتذكر ما قاله في نفسه قبـل لحظات : « ان المريض بالسفلس » ..

اذن انا مريض ؟!

هذه حقيقة يجب ان لا تنكرهـا يا عبدالتواب . انتمخابرات اردنيـة . اذن انت مريض » .

مريض ؟ لا ابـدا ..

انا معافى .. مريض .. معافى .. مريض .. معافى .

انني معافى .. هذه هي الحقيقة الناصعة . واذا كان صابر يحقد علي فهو انما يحقد على نجاحاتي .. انه يريد ان ينتقم لاحباطاته الشخصية .

وحاول ان يقنع نفسه بهذا الراي ، الا انه فشل .. فشل تماما . داس على البنزين اكثر . فاسرعت السيارة ، اسرعت.. « الاجتماع سيبدأ بعد دقائق » .

وفجأة قفزت الى ذهنه فكرة ما فقرر ان يطبقها : لماذا لا يتعوق عن هذا الاجتماع قليلا ؟ ان مركزه في الرابطة يؤهله لان يتأخر اجتماع كهذا بسببه . بل ان هذه الدقائق القليلة التي يتعوقها يمكن ان تزيد من وجاهته الشخصية .

« تمهل يا عبدالتواب تمهل .. آن الاوان لكي تلقن اولاد الزواني درسا . آن الاوان ليعرفوا حجمك الحقيقي وحجم مواهبك » .

وابتسم عبدالتواب .. ابتسم ابتسامته اللزجة : « انني اكبر ناقد في البلد »

الوحيد الذي يرفض الاعتراف بهذا هو الجرو صابر . على اي حال ليذهب الجرو وكل جراء العالم الى الجحيم . ان جسده لا يكاد يحمل جسده . انه كتلة من العظام المهترأة،وبامكاني في اي لحظة ان اقصعه كالقملة .

وعاد عبدالتواب يطلق ابتسامته اللزجة : « ان السيارة شيء ضروري للانسان.نمرة ١١ بنت كلب . لقد صنعت خصيصا لصابر وامثاله من التافهين » .

ببطء شديد كانت السيارة تسير ، ببطء شديد . وكأنما كان عبدالتواب يريد ان يعوض عن بطئها بسرعة احلامه .. الصاروخية الهائلة .

« قال نمرة ١١ قال » !

لفظها باللهجة المصرية ، ثم عاد يضحك بهستيريا : « سيارة

الفولكس هذه لا بد ان استبدلهـا ذات يـوم بأخـــرى من نـوع « ستروين » .. الستروين فقط هي التـي ترضي غروري . ان « عبدالعظيم قمر » رئيس رابطـة الكتاب لا يزيد عني في شيء .

بل انني ذات يوم سأجعله يلعـن اللحظة التي ولـد فيها . سأزيحه عن عرش الادب والفن ، لان هذه الرابطـة لـم تخلـق الا لي . ان هؤلاء الكتاب النعاج لا يمكن ان يأتمروا الا بأمـــر شخص مثلي . شخص يعرف كيف يؤدب صابر الذي ابتدأ يهاجم الهيئة الاداريـة في الصحف .. شخص يعرف كيف يتسلل الـى الادباء ويبث الفرقـة بينهم .. يتودد اليهم تارة ، ويهز العصا تارة اخرى . وسوط المخابرات موجود ابدا في جيبـي ، وباستطاعتي ان ارفعـه في اي لحظة اشتهيها .

وأحس عبدالتواب بالسعادة الفجائية . انه رجـل مهم .. مهـم فعـلا !

وداس على البنزين من جديد فاسرعت السيارة : هيا ايهـا الفولكس الحبيب . ها هي احداهـن قادمة . عندمـا وصـل بالقرب منهـا خفف السرعة ، اطلق في وجـه الفتاة ابتسامتـه اللزجـة ، فابتسمت هي الاخرى . « من ؟ من هذه الحسناء ؟ لا بد انها تعرفنـي . انني اكبـر ناقد في البلـد . انـا مهـم . مهم فعـلا » .

ـ صباح الخير .

لـم ترد ..

ـ قلنا صباح الخير .

نظرت اليه بلا مبالاة :

ـ هل تعرفنـي ؟

ـ اعرف انك حسناء . وهذا يكفي .. اليس كذلك ؟

ـ شاطر . شاطر ..

وحدقت فيه باشمئزاز . تجاهل عبدالتواب تحديقهـا وعـاد يقـول :

ـ تفضلي اوصلك .
ـ وبعدين معاك ؟ اتنصرف بالحسنى ام اجعل الناس كلهم يلتمون عليك ؟
ابتسم : على ماذا ؟ فقط .. انني ادعوك لتركبي .
ـ يا اخي شكرا . قلت لك شكرا . فيم كل هذا الالحاح اذن ؟
رد ببرود ، وابتسامته اللزجة تسبقه :
ـ انني معجب .
استدارت الفتاة نحوه . وضعت عينيها في عينيه مباشرة ثم قالت بحزم :
ـ اسمع . دمك ثقيل . وعليك ان تنصرف الآن فورا . انت لا تدري مع من تتكلم !
فكر عبدالتواب في نفسه : « من يدري .. ربما تكون بنت احد الشخصيات وقد تورطك يا عبدالتواب ، فتنسف في لحظة واحدة كل ما انجزت وما تنوي انجازه » .
ولاول مرة احس عبدالتواب بانه تعيس ، تعيس . وانه جدير بالرثاء ، الرثاء ، الرثاء ..
وتلقائيا داس على البنزين فقفزت السيارة بحماقة ..
« يا الهي ان انثى كهذه تليق بي تماما . هذه يمكن ان يضعها المرء بجانبه في السيارة بكل فخر . هذه هي نموذج الفتاة التي طالما حلمت بها . انها وقحة . وانا قذر بلا اخلاق . وما اسهل ان نتفق لو تتاح لنا الفرصة مجددا » .
والآن ؟
الآن سألتقي بعبدالعظيم قمر في الرابطة . ان عبدالعظيم له هيبة خاصة ، وليس من السهل مواجهته .
وأوقف السيارة ، نظر في المرآة قبل ان يفتح الباب ويخرج ، عدل ربطة عنقه ثم نزل :
ـ السلام عليكم . اين الاستاذ عبدالعظيم ؟

تبرع احد الادباء الجالسين في الرابطة قائلا :
ــ لم يحضر بعــد .
استدار عبدالتواب بخفة ، وقد بان الغضب المفتعل في وجهه:
ــ وهل هذا يجوز ؟ من يعتقد نفسه عبدالعظيم قمر هذا ؟ نحــن نعرف تاريخه ، ونعرف كل اسراره . لقد خدم النظام بمــا فيه الكفايــة . انه محروق ، واوراقه مكشوفة لدينا .
ومع ذلك ها هو يتصرف وكأننــا عبيد عند ابيــه . هــل هذا يجــوز ؟
نظر اليه احد الادباء الجالسين :
ــ ما الداعي لهذا الكلام كله ؟ لقد تعوق عبدالعظيم ، وانت ايضــا تعوقت .
ــ انا يا أستاذ كنت عند الطبيب . ان زوجتــي مريضة . واعتقد ان هذه حجة كافية ، أم انــي مخطىء يا حضرة الاستاذ؟
رد الشاب ببساطــة :
ــ وعبدالعظيم قمر ايضا .. لا بد ان له عذرا .
كزّ عبدالتواب على اسنانه غيظا :
ــ لكن عبدالعظيم رئيس الرابطة . وهذه التصرفات لا تليق برئيس . ثم .. هل وكلك عبدالعظيم للمرافعــة عنه اثناء غيابه؟
ــ اسمع يا عبدالتواب . ارجــو ان لا تحرجني كثيرا . انني اعرفك اكثر مما تعرف انت نفسك . لذلك اياك والتطاول . انــا لا اخافك ولا اخاف كل من يشــد على يدك . هل تفهم ؟ حــاول عبدالتواب ان يقول شيئا . الا ان احد الحاضرين هتف :
ــ كفى . كفى ... ها هو عبدالعظيم قد حضر .
التفت عبدالتواب جانبا فوقعت عيناه على عيني عبدالعظيم . طويل ، متألق ، عيناه تنضحــان بالحزن والذكاء ، مترهل قليلا . الا ان الشيء الثابت ان لــه هيبة خاصة .
ــ اهلا . اهلا استاذ عبدالعظيم . نحن في سيرتك . لقــد تعوقت قليــلا والواقع اننا قلقنا عليك .

ثم تقدم اليه عبدالتواب مصافحا،وابتسامته اللزجة تسبقه.
اطلق الاديب الشاب ضحكة مفرقعة . فتساءل عبدالعظيم على الفور :
ـ ما الحكاية ؟ الا تريد ان تضحكنا معك ؟
ـ لا . . واذا كان لا بد من الضحك ، فلتضحكوا علي انا !
ابتسم عبدالعظيم بود :
ـ هيا . هيا يا اخوان . . الى الاجتماع .

★ ★ ★

في طريق عودته الى البيت ، كان عبدالتواب يحس بنشوة عارمة . . نشوة عارمة ، عارمة هي التي كان يحس بها . . من كان يصدق ان عبدالعظيم قمر يستسلم امامه ؟

(ان عبدالعظيم صلب، وليس من السهل ان ينحني امام احد . لكن ها هو يتهاوى امام الضربة التي وجهتها اليه . . سيطرد صابر من الرابطة شاء عبدالعظيم ام ابى . سيتم الامر كما خططت له تماما . . لقد صوت اعضاء الهيئة الادارية ضد رأي عبدالعظيم ، وعلى كل حال ليست هذه الا الضربة الاولى . ان موسما رهيبا من الضربات ينتظرك يا عبدالعظيم قمر . وكذلك انت يا صابر مطر . وما عليكما الا ان تصمدا . ان هيبتك يا عبدالعظيم لم تعد تجدي، وكذلك نباحك ايها الجرو صابر).

واطلق ابتسامته اللزجة ثم اوقف محرك السيارة ، نزل الى البيت وهو يحس بشعور غريب من الازدهار والسعادة . . لقد حطم كبرياء عبدالعظيم ، وطرد صابر .

ولم يبق عليه الآن الا ان يعد جيدا ، في انتظار ان يصبح رئيسا . وليغرق العالم من بعده . . كل العالم .

وتلقائيا ضرب الجرس ، ففتحت زوجته الباب . . كان وجهها يوحي بالتعب والقلق وعدم الرضا .

قرب عبدالتواب شفتيه من خدها ليعبر عن فرحته بتلك اللحظات النادرة ، الا ان زوجته اشاحت وجهها عنه ، ونظرتها المعهودة تطلق في وجهه سموم الحقد والاشمئزاز والكراهية .

القسم الثالث

مروان الراعي

الفصل الاول

ـ حتى الطبيعة تخطىء احيانا . انظر .. عيناه الخضراوان، وجهـه الاملس ، ساقاه الطويلان ، شعره الناعم المنسدل . الـم يكـن من الاجدر ان تخلقه الطبيعـة آنسة برابية معشوشبة ما بين الفخذين . ها .. الم يكن من الاجدر ان يكون الامر كذلك ؟

فرد صاحبه : ايهـا اللوطي القذر !

ثم اخذا يتضاحكان .

يومها كزّ مروان الراعي على اسنانه ، تمنى لو يفعل شيئـا لاسكاتهما، لكن حياءه الفطري منعه من ذلك ، فتركهمـا ومضـى غاضبـا .

في البيت ..

ما ان بدأ يخلع ملابسه لكي يرتدي البيجامة،حتى وجد نفسه وجها لوجه امام مرآة طويلة ، فرأى نفسه عاريا تماما .

ولاول مرة تأمل جسده يومها فبصق : « لو كان لي أخت لما كان جسدهـا الا كذلك . فقط مـع فارق النتوءات والزوائـد والحفر . اختفو .. انهمـا صادقان . كان علـى الطبيعـة ان تمنحني اشياء غير هذه التي يحسدني عليها الاخرون » .

. . . .

كان مروان يجلس في حديقة شعبية في جبل اللويبدة ، حينما مرت احداهن ، فنظرت اليه شبه مذهولة ، فكان ان تذكر تلك اللقطة وابتسم ساخرا من نفسه : آه .. ان الايام تجري بسرعة .. لقد كان ذلك منذ اكثر من عشر سنوات .

★ ★ ★

باستمرار كان يضيق بالحفلات التي تحييها امه . فجوها صاخب اكثر مما ينبغي ، وهو يحب الهدوء . فيها كل الوان التكلف والنفاق ، وهو يكره النفاق والتكلف . فيها كثير من السيدات والآنسات المبتذلات ، وهو يكره الابتذال .

لكنه في تلك الليلة حينما عاد الى البيت مرهقا ، ووجد زميل دراسته (عصام) جالسا ، اضطر الى مجاملته فجلس بين المدعوين .

ــ مروان ، هذه امي .

تلفت فرأى امراة صغيرة تجلس بالقرب منه ، لكن كل ما فيها ينطق بالارستقراطية .

ــ اهلا وسهلا .

ــ اهلا مروان . ان عصام يحدثني عنك كثيرا ، وكذلك امك .

كان في نظراتها مغناطيس خاص . لم يستطع مروان الا ان يسمر عينيه فيه لحظات .

ــ ياه .. انت خجول .

ــ قليلا يا سيدتي .

ــ سيدتي ؟ اسمي ام عصام او لنقل رويدا .

وكأن شيئا ما اهتز داخل مروان تلك اللحظة ، فأحس برجفة تسري في كيانه كله : آه .. ان العشب اذا ما استطال كثيرا ، فانه يحن الى اسنان الماعز والمناجل ..

والنخيل اذا عطش يطلب الماء ..
وليالي الشتاء لا تطلب الا النار والحرائق !

★ ★ ★

كانت الشمس لاهبة لاهبة ..

اخرج مروان ورقة الفايـن من جيبه ، جفف بهـا وجهه وصدره : اين ابـي ؟ لا بد من مبلـغ من المال . فعبدالتواب يقول ان زوجتـه في خطـر .

نزل درجات المكتب بسرعة ، نادى على سيارة ، وطلب من السائق ان يتجه الى (رأس العين) .

ما دام والده ليس في البيت ولا في المكتب ، فلا بـد انه في الكسارة .

نزل من السيارة فذهل ممـا راى .. كان والـده يمسك بـ « نربيش » جلدي ويهوي به على جسد احد العمال ، وهـو يصرخ : سأقتلـك . وحق ابليس سأقتلك . العامل كان يبتعد عنه تارة كـي يتحاشى الضربات ، ثم يهاجمه تارة اخرى .

ـ يا للشـاب المسكين .

وتقدم مروان من ابيه . حاول ان يقف بينه وبين العامل، الا ان والده كان مهتاجا تمامـا فهوى عليه بالنبريش كي يبعده من طريقه . عند ذلـك اقترب العامل من صاحب الكسارة ، ومـا ان وقعت على يده الضربة ، حتى شد النبريش من يد الرجل ، فوقع ارضا .. ابتدأ العامل يضربه بقسوة ، بقسوة .. ومروان يتفرج، يتفـرج .

عندئذ سأل مروان : من هذا العامل ؟
قيل له : انه عثمان .. عثمان الاعرج .

★ ★ ★

رويدا : ان عصام يحضر الى بيتكم كثيرا . لماذا لا تحضر الى بيتنـــا أنت ؟

مروان : هذا يسرني . وسوف افعلها قريبا .

كانت السماء غائمة تنذر بالهطول . ورغم الفراء الثمين الذي كانت ترتديه المراة ،والبالطــو الصوفي الذي يرتديه الشاب ، الا انهمــا كانا يشعران بالبرد .. البرد الشديد !

★ ★ ★

ـ اقرات .. اقرات يا ابــي ؟

ـ الجريدة ؟

ـ نعم .. هذا الخبر الصغير بالذات .

قرب الرجل عينيه من الجريدة : « الفدائيون يفجرون ثلاجة في القدس الـ .. » ثم توقف وهــو يحملق مشدوها في ابنه .

كرر مروان بفرح : اقرات ؟

فرد الرجل بفتور : أيوه .. أيوه قرأت . ولكــن ما الــذي يجعلك تنفعل هكذا ؟

ـ يا الهي .. السـت فلسطينيا ؟

حرك الرجل يده بصبر نافذ :

ـ قل لي بحق ابليس .. الم تكبر بعد ؟ الا تريد ان تتزوج ؟

★ ★ ★

المسألة هي ان اباه لا يتواجد في مكــان واحد ، بحيث انــه لا يكــاد يراه فــي البيت . ان للرجل دماغا عجيبا .. انه يديــر البيت والكسارة والمكتب وسيارات الاجرة التي يملكهــا و .. انه يقابل رجال الاعمال والزوار والسكرتيرات وزوجته وابنه والعمال وسائقي السيارات .. رجل خارق بلا شك ، وفي دماغه ماكينة

خاصـــة لتفريخ المال .

ـ آ .. مروان . انني مشغول . كم تريد ؟

ـ كم ؟ !

ـ ايوه كم . انت لا تحضر الى المكتب ابدا الا من اجل مبلغ ما . وحق ابليس انت لا تحضر الا لاجل هذا . هل تنكر ؟

بلع مروان ريقه بصعوبة .. فقد كان فعــلا يريد بعض المال. الا انــه بسرعـــة قمع رغبته وخرج من المكتب بعصبية . سار في الشـــارع مفكرا :

لا عاطفـــة خاصة تربطني بهذا الاب . هذه حقيقة . انـــي لا احبه ، لا اشعـــر بذلك الشعور الخاص الذي يربط عادة ما بيـــن الابناء والآباء . المسألة كلها هي انـــــــي ادمنت وجهه وعينيه اللامعتين .

مجرد ادمان، او لنقل عادة . ولا بد ان انتصر عليها ذات يوم.

لكنه عاد وتذكر ان حاجته الى المال اكثر من ملحة . فاتجه ثانيـــة الى المكتـــب :

ـ افتح الباب . اريـــد ان اتحدث معك قليلا .

فوجيء الاب :

ـ مروان ؟ انتظر قليلا .

جلس الشاب على كنبة في الصالون ، اخرج سيجارة مـــن جيبه ، اشعلهـــا متأففا :

ـ هذا الرجل الملعون .

فتح الباب فجأة ، خرجت احدى السكرتيرات . وقعت عيناه على عينيهـــا لحظـــات ، ارتبكت قليـــلا ، انزلت عينيهـــا فأدرك الموقف فورا .. المسألة ليست بحاجـــة الى تعليق :

انه يخون امي !



ـ رويدا .. انني اكاد انفجر .

ـ ما الذي ينقصك ؟ ان كل ابناء جيلـــك يحسدونك .. الوسامة ، الصحة ، المال ، الرفاهية .. ماذا تريد بعد ؟

ـ اريد انسانا .

ـ انسان ؟

واقتربت منه، مسحت يدها بشعره الاشقر الناعم ، ثـــم نزلت بهـــا على طرف وجهه فوجد راسه يميل تلقائيـــا ليـــلامس ثـــوبهـــا .

ـ انني ضائع ضائع ..

وكاد يرتمي بين احضانها،لولا انه تذكر فجأة انها ام صديقه، وان امه قد تطل براسهـــا مـــا بين لحظة واخرى .

تذكر ذلـــك فأدار رأسه الى الجهة الاخرى بعنف :

ـ اشعـــــر بالغثيـــان والقرف .. القرف والغثيان .. الغثيـــان والقرف !

★ ★ ★

كم انت نقي يا صابر .

كم أنت طاهر نبيل ..

ان الاحزان المقدسة التي تتعمد بها يوميا ، والفقر والجـــوع الذي تعانيه كل لحظة ، والغربة التي تفترس عينيـــك وقلبك ، والثورة التي يطفح بهـــا كيانك ، والصدق الذي ينز من بيـــن شفاهك .. كل هـــذا يجعلك اقرب الناس الى قلبي وروحي .

اين انت يا صابر ؟

★ ★ ★

لم اعد استطيع الاحتمال .. لم اعد استطيع .. لم أعد .. كان العرق ينز من خلايا جسده ، الاجهاد يعتصره اعتصارا،

وصخب فظيــع يجوب ارجاء صدره .

لم أعد استطيع الاحتمال .. لم أعد ..

ان شيئا ما ينقصني . لكن .. ما هــو هــذا الشيء ؟ ان قبضة حديدية تعتصر قلبي، لكن ما هو مصدرها ؟

ان خطرا مــا يتهددني . لكن لمــاذا ؟

لم أعــد استطيع الاحتمال .. لم ..

ووجد نفسه يقف في باب رويدا .. يا الهي ما كنت أنوي المجيء الى هنا . كيف ساقتني قدمــاي الى هذا الباب اذن ؟

اطرق ؟ لا ..

اطرق ؟ لا ..

اطرق ؟

ثم كبس على الزر فانفتح الباب ..

كانت المرأة ترتدي ثوب زوجها الذي لــم يره مرة واحدة في حياته ، او ربمــا روب ابنهــا عصام .

كان شعرها يقطر ماء ، وقد وضعت حول عنقها منشفــة خفيفة .. انهــا خارجة من الحمام توا .

ــ آسف .. يبدو انني حضرت في وقت غير مناسب .

ابتسمت بحنو ، امسكت يده، ضغطت عليها قليلا، فأحس برجفــة تجتاح بدنه كله .

ــ انت متعب عليك ان ترتاح .

وبعد لحظة واحدة :

ــ ما رايك في حمام بارد ؟

نظر اليها باستغراب شديد (المسألة تبدو وكأنهــا لقطــة سينمائية في احد الافلام الاجنبية)

تركته يحدق فيهــا مشدوها . دخلت احــدى الغرف ، تناولت بيجامة زرقاء :

ــ هذه بيجامة عصام .

لم يستطع ان يفعل شيئا . كان الارتباك قد شل حركتــه

تماما ، فوقف مسمرا وعيناه على الارض .
اقتربت رويدا ..
اقتربت اكثر
اكثر
اكثر
رفعت ذقنه بأحد اصابعها، التقت نظراتهما ، فأحس انه مقبل على شيء غامض جديد ..
ـ انت مثل ولدي عصام .
أحس مروان ان حرابا كثيرة تتصادم في صدره ، فطفرت الدموع من عينيه ، ورمى راسه على صدرها : امي .. يا امي.
قبلته على خده ، على شفتيه ،
رقبته ،
جبينه ،
صدره ،
واختلطت قبلاتها المحمومة بدموعه ونهنهاته .. ان شيئا ما يدفعه اليها دفعا .. شيئا فوق طاقته واحتماله .

★ ★ ★

صابر هذا ..
هل هو من ابناء كوكبنا ؟
هل يحب ، يبغض ، يعشق ، يحقد .. مثل الآخرين ؟
هذا الفلسطيني الطالع من بين العشب والانهار والصخور ..
هذا المجبول بالدم والتراب والفجيعة والتشرد ..
هذا الشاعر ، الطيب ، الثائر ..
هذا .. هذا ..
هل هناك صلة حقيقية تربط ما بيني وبينه ؟ انني حتى لا اعرف حقيقة شعوره تجاهي .

★ ★ ★

كان الثلاثة يجلسون في خمارة الاحزان .. صابر يدخن بشراهة ، ويبدو على وجهه الاهتياج ، بينما عبدالتواب مشغول بتوصية الكرسون على نوع خاص من « المازة » . اما مروان فقد كان في عالم آخر .. عالم من النشوة والازدهار والاحساس الكامل بالتفوق .

ــ ها صابر .. ما الحكاية ؟

ــ الرقابة اللعينة .

ــ تقصد دائرة المطبوعات والنشر الاردنية ؟

ــ أيوه .. انهم يمنعون ديواني الجديد من التداول في الاسواق . وقد هددني المسؤول بالسجن اذا لم اسلمه كل نسخة امتلكها من الديوان .

تبسم عبدالتواب :

ــ احسن .. هذه اول مرة يفعل فيها الرقيب شيئا ذا قيمة !

انفعل صابر :

ــ ماذا تقصد ؟

ــ بصراحة يا صابر .. ان ديوانك الثاني يختلف عن ديوانك الاول . وقد كان عليك ان تتمهل في اصداره . ومسألة اخرى .. انني احذرك من هجوماتك المتكررة على رابطة الكتاب . انت تعلم انني الرجل الثاني في الرابطة . وانا لا اسمح ابدا بهذه المقالات التي تنشرها ضد الهيئة الادارية . وعبدالعظيم قمر رئيس الرابطة لا يسمح بهذا رغم صداقتك معه .

امتعض صابر :

انت ايها السادي ... انت . هل ينتظر المرء منك ان تقول شيئا غير هذا ؟

صاح عبدالتواب :

ــ مروان ما رايك ؟

افاق فجأة : حول ماذا ؟

ـ حول ديوانه الجديد ؟ وحول تلك المقالات المسمومة عن الرابطة ، والتي يبدو انها ستؤدي الى طرده من عضويتها .

افاق مروان فجأة :

ـ رايي .. رايي ان في العالم لذائذ كثيرة ، واحاديث اكثر خصوبة واشراقا .. رايي ان العالم رائع ، فلا تفسدوه الان باحاديثكم عن الشعر والنقد والسياسة .

فتح عبدالتواب عينيه على اتساعهما .

ـ ها ؟ واضح ان لديك سرا ترغب في افشائه .

التمعت عينا مروان الخضراوان برهة ، فوضع يديه امام وجهه كطفل بريء ثم شهق :

ـ سر ؟ بل ان لدي الآن اسرار العالم بأسره .. كنوز الارض كلها ، نجوم السماء كلها ، افراح الغابات كلها .. لدي الآن حبيبتي رويدا .

ثم اغمض عينيه وراح يغمغم حالما :

رويدا ..

ر .. وي .. دا ..

را .. واو .. ياء .. دال .. الف .

رويدا ..

★ ★ ★

تناول سيجارة جديدة ، وضعها في فمه ، ثم اشعلها من سيجارة اخرى في يده الثانية .. نظر حوله ، فأحس للمرة الاولى ان غرفته كانت مدهشة .. السرير الابنوسي وفوقه الحرام الازرق ، المكتبة الصغيرة المرتبة ، الشموع التي تنبثق من خلال زجاجات انيقة ، الجدران الوردية وسقفها المزين برسوم .

ان العالم مدهش ، مدهش ، مدهش ..

فقط لو ان رويدا الآن في جانبي .. لو ان جلدها الحليبي

يلتصق بجلدي .. لو تتسلل الآن من فراشهـا وتأتي لتندس هنا:
آه ..

وراح مروان يتخيل لقاءه الاخير معها . مثل حمامتيـن سعيدتين كانا : اصابعها الشهيـة تزقه بالطعام ، آه ..
راسه يرتاح فوق ذراعهـا الطري ، آه ..
من نفس فنجان القهوة يشربان ، آه ..
من نفس السيجارة يدخنان ، آه ..
شيطـان المتعـة السرية ، آه ..
تانجو اللذة والايقاعات ، آه ..
الرعشات المجنونـة ،
آه ..
العيون الحبلى بالفرح والشهوة والخطيئة ،
آه ..
النار ، النار ، النار ، يا رويدا .
آه .. اه .. آه ..

★ ★ ★

في طريقهما الى مخيم الوحدات ، كانا يشعـران بالاعيـاء والتثاقل . وبين الفينة والفينة كـان مروان يسأل : الى ايـن نحـن ذاهبـان ؟

فيرد عليه صابر : اريـد ان ارى احد الاصدقاء .

كانت اصوات الباعة المتجوليـن تختلط بابـواق السيارات واقدام المارة ونداءات العيـون الشرسـة المتعبة .

ـ انظر .. انهم حراس الملك .

ـ تقصد رجال الباديـة ؟

ـ انظر ملابسهـم العجيبـــة ، وعصيهم الشيطانيـة ، ومسدساتهم . انظر ..

ـ صابر .. الا تعتقد ان الجهل وحده هو المسؤول عن بقائهم في وضـــع كهذا ؟
ـ ربما .
وغاصا بين الدور المهترئـــة بطرقاتها الطينيـــة الضيقــة ، وصراخ اطفالها ، ومقاهيهـــا المعتمة ..
ـ صابر .. الى ايــن نحن ذاهبان ؟
ـ لقد وصلنا .
بعد لحظات طرق احد الابواب التنكية ، فخرج شاب خشن المظهر ، متسخ الهندام ، اجعد الشعر . القى نظرة فاحصة على مروان ثم قـــال :
ـ تفضلا .. الشاي على وابور الكاز .
الا ان صابر اعتذر قائلا :
ـ لا . فقط اردت ان اسألك اذا كانت « الهدية » قد وصلت ام لا .
ـ كل شيء تمام . سأنتظرك غدا في السادسة مساء .
حدق كل منهمـــا في وجه الاخر بثبات ، ثم ادار صابر ظهره ومضى . بعد ذلــك تبعه مروان وهو مـــا زال يلتفت الى الخلف .
ـ صابر .. سبق لي ان رأيت هذ الوجه من قـــبل . مـــا اسمــــه ؟
ـ عثمــان .
ـ عثمان الاعرج .. اليس كذلك ؟
ـ بالضبط . أتعرفه ؟
ـ انه يعمل في كسارة ابي . لكنني استغرب ما صلتك به . لا بد ان علاقة سرية غريبة تربط بينكما .
اليس هذا هــو الشاب الذي كـــان يناديك بيــن الحيــن والحين من الخمارة أو البيت ، فتتركنـــا لتمضي معه ؟ اليس هذا هو الذي كان عبدالتواب يطلق عليه لقب « البوم » . اليـــس..؟
فأوقفه صابر :

ـ مروان .. دعك من هذه الامور . انت ما زلت طفلا .
ضحك مروان :
ـ اتدري ؟ انه يذكرني بابطال « دستويفسكي » وعلى وجه التحديد بـ « راسكولينكوف » بطل « الجريمة والعقاب » ، تلك الرواية التي اعرتني اياها ذات مرة .
ـ حقا ؟!

★ ★ ★

مبكرا عاد في ذلك المساء الى البيت . كان يشعر بالارهاق والتعب والجوع الشديد . لكنه ما ان فتح الباب ووقعت عيناه على رويدا حتى نسي كل شيء ، فأقبل عليها تسبقه ابتسامته الطفولية .
ـ اهلا مروان .
ـ ما هذه الملابس السوداء ؟ يا الهي كم انت جميلة وذواقة. اين امـ .. وقبل ان يكمل سؤاله سمع ضحكة مختلطة في الغرفة المجاورة . وبعد لحظة واحدة ظهرت امه وبجانبها صديقه عصام .. كانا يبدوان سعيدين متألقين ، لكن ظهوره المفاجىء اربكهما كليهما .
تساءل مروان بينه وبين نفسه : اذن هكذا ؟ اذن فالروايات المبتذلة فيها شيء من الصحة . واحس بثقل غريب مرعب يكاد يشل ساقيه تماما ، وان كسارات ابيه كلها بشواكيشها ومعداتها وجنازيرها قد انتقلت الى راسه فجأة واخذت تطحنه طحنا .
ـ مروان .. انت مريض ؟ تساءلت امه ، ثم اقتربت منه وحاولت ان تضع يدها على جبينه ، لكنه قبل ان تصل يدها ، وجد نفسه يصفعها على وجهها ويركض باتجاه الباب .



ـ صابر .. اريـد ان اسكن معك في نفس الغرفة . لقـد تركت كل شيء . انهم برجوازيـون عفنون .

تطلع اليه صابر .. كانت سحنته كلها مقلوبة ، وقد بدا على وجهه الاعياء والدعـة والفوضى

ـ ما الحكايـة مروان ؟ انت سكران ؟

فحرك يده بضيق :

ـ فقط اريـد ان اسكن معك .

ـ البيت بيتك بالطبع . ولكن .. اجلس الآن ، اجلس .. انني تعب ومريض ، وغدا سأرقد في المستشفى .

وقام صابر بتثاقل ، اتجه الى المطبخ الصغير ، اشعل وابور الكاز ، ثم وضع ركوة القهوة على النار .

الفصل الثانــي

لم يكــن مروان الراعي قد فكــر جيدا في هذه الامور كلها. بــل انــه لم يأخذ تلــك المناقشات السياسية التي كانت تــدور بيــن صابر وعبدالتواب مأخذ الجد .. كان يعتقد في البدايــة ان هذا النــوع من البشر لا يجد احيانا مــا يسد به اوقات فراغه، ومن هنــا فانهم يبدأون بدحرجة كرة اسمها السياسة .

لكنه مع ذلك كان يدرك ان معاناة صابر معاناة حقيقيــة لا تشوبهــا شائبة . وكان يصدق كل كلمة يقولها ، لانه لم يسبــق لصابر ان كذب عليه ولو مرة واحدة ، ولم يسبق ان رآه في موقف مشين . وها هــو الان يلتقي بصابر آخر ، ولكــن بطريقة اخرى جديدة . فهو مــا زال يذكــر كيف انتزع عثمــان النبريش من يد والده ثم ابتدأ يضربه بشراسة . وهو مــا زال يذكر تلــك اللهجة الصارمة التي كــان يتحدث بها حتى مع صابر نفسه .

ان هذا العامل مدهش حقا . وهذا العالم الذي يفتحه امامه الآن مدهش ايضــا :

لينين . الطبقة العاملة . الرجعية . النضال . المقاومــــة السرية .. الاحزاب . العمال . الفلاحين الـ .. يا له مــن عالــم مدهش .

وابتدأ مروان يسرع في خطاه باتجاه ابيه : لا بد ان ينفذ ما طلبه منه عثمان الاعرج .

★ ★ ★

اكثر من ستة شهور كانت قد مضت ، دون ان يشاهد مروان الراعي فيها والده او والدته او حتى رويدا فمنذ ان قرر الانسلاخ عن طبقته برمتها، واختار العيش مع صابر، ومنذ ان تعرف على سعاد بعد ان شجعه صابر على ذلك، بعد هذا كله لم يحاول ان يرى احدا من اهله ، رغم ان صابر وعثمان كانا باستمرار يصران على عودته الى بيته، ولكن بشكل اخر جديد..

ـ مروان ؟ اهلا بالولد الضال . اهلا .

ثم اقترب منه ، احتضنه بين ذراعيه، ونشوة الانتصار في عينيه : لم تستطع الاستغناء عن جيبي . كنت اعرف هذا. وحق ابليس كنت اعرف. كان مروان يرتدي ملابس متسخة غير مرتبة، وذقنه طويلة نوعا وقد اكتسب وجهه صبغة جدية وحزينة، بعد ان ازداد نحولا .

ـ اين كنت هذه المدة كلها؟ ان امك تكاد تجن. هيا قم بنا اليها.

وامسك الرجل بيد ابنه، حاول ان ينهضه عن المقعد، الا ان مروان ظل جالسا :

ـ ابي .. انتظر لحظة . اريد ان احدثك في موضوع مهم .

حدق الرجل في وجه ابنه بثبات ثم قال :

ـ دعنا من الحديث الان. ولنمض الى والدتك. ما الحكاية ؟

ـ باختصار اريد ان اتزوج .

اشرق وجه الحاج قاسم فبدا اكثر شبابا مما هو عليه في الحقيقة .

ـ ها انت قد بدات تعي مصلحتك جيدا . لقد كنت اعرف ان بعدك عن البيت سيعيدك الينا انسانا جديدا. وحق ابليس

كنت اعرف .

تضايق مروان من ذكر ابيه المستمر لكلمة ابليس بمناسبة وبدون مناسبة . ومع ذلك هتف :

ـ نعم . لقد عدت انسانا جديدا بالفعل، بدليل انني اريد ان اعمل عندك .

ذهل والده : تعمل ؟

ـ عاملا في الكسارات .

امتعض الرجل فصرخ باستنكار :

ـ عامل ؟

رد مروان ببساطة :

ـ عامل ، مسؤول ، مراقب .. لا يهم . المهم انني اريد ان اعمل واتعلم الحياة .

★ ★ ★

رغم ان كسارات ابيه كانت في (راس العين) ، ولا تبعد عن مركز المدينة كثيرا، الا ان مروان لم يكن قد مر عليها اكثر من مرات قليلة ولاسباب اضطرارية اغلبها مادية .

كان مروان لايطيق ضجيجها ولا ذلك الغبار الابيض الذي يتصاعد من وسطها . لكنه مع ذلك كان يشعر بينه وبين نفسه بتعاطف خاص مع هؤلاء العمال الذين يكدحون طيلة النهار، لكي يحصلوا بالتالي على ثمن زجاجتين من البيرة لا اكثر. كان يرى ان اجورهم لا تتناسب ابدا مع تلك الارباح الضخمة التي يجنيها والده من وراء عرقهم وتعبهم وامراضهم . وكان لا يطيق ابدا فكرة اهانة ابيه او مراقب العمل لاي فرد منهم . باستمرار كان يردد امام ابيه :

ـ ان العامل انسان مثلنا يا ابي . وقد روت لي امي ان جدي كان راعيا. وهنا كان والده يحتد :

ـ كان . نعم لقد كان . اما الان فنحن لسنا رعاة . نحن سادة اشراف ولدينا رصيد يمكن ان نشتري به كل رعاة الارض . اما هؤلاء العمال فأنت لا تعرف من امرهم شيئا. انهم حشرات .. بق . يمكن ان يمص دمي اذا ما اغمضت عيني عنه لحظة واحدة . اتفهم ؟

نزل مروان من السيارة واتجه فورا الى غرفة صغيرة كان يستعملها المراقب لاوقات استراحته .

في هذه اللحظة التقت عينا مروان بعيني عثمان الاعرج، ابتسم مروان ، واكتفى عثمان بأن هز له رأسه .

★ ★ ★

احتضنته امه والدموع تفر من عينيها : عدت .. يامروان؟

ـ امي !

وابتدات تلثم وجهه ويديه وصدره وكل ما تقع عليه شفتاها.

ـ كيف طاوعك قلبك على العيش بدوني طيلة هذه الفترة؟ لقد اخطأت في تصورك يا ولدي، وكدت تقتلني قتلا .

ـ سلامتك يا امي . لكنني كنت اريد ان اشق طريقي في الحياة. وقد اكتشفت ان علي ان اساعد والدي في العمل بالكسارة.

فغرت امه فاها : في الكسارة ؟

ـ نعم . نعم يا امي . ارجو ان لا تقفي في طريقي . لقد اخترت هذا العمل عن وعي وقناعة . واريد منك ان تفهميني .

ـ لكنك لم تخلق للكسارات يا ولدي . ونحن لسنا فقراء و..

قاطعها مروان بحزم : كفى يا امي . قلت لك ان هذا العمل هو الذي اخترته ، وهو المكان المناسب لكي ابدأ من خلاله .. اتفهمين ؟

وقبل ان تجيب الام كان ابوه يقول : على كل حال دعونا من هذا الان. اتدري من ازعجنا بالسؤال عنك يوميا؟

تساءل مروان : مــن ؟
ــ رويدا يا ابليس . رويدا . يبدو انها قلقة عليك .
وابتسم الرجل بخبث فهتف مروان بينه وبين نفسه :
اي فاجر عريق انت يا ابي . اي فاجر !

★ ★ ★

كان الحاج قاسم قد عاوده القلق ثانية بخصوص ابنــه . فمسألة عمله في الكسارة كانت كالطلقة في خاصرته . اذ مـــاذا سيقول اصدقاؤه حينما يعلمون ان ابنه يكدح مع العمـــال فــي الكسارة ؟ بالتأكيد ان الامر فضيحة .. انهم سيتهمونه بالبخل، وسوف يتندرون بالحكاية من الفها الى يائها . ثم .. هل يطيــق هذا الصبي المرفه عيشة الكسارات وسط الضجيج والغبـــــار والشمس والحر ؟ على اي حال دعه يجرب .

ولم يتركه الا بعد ان اوصى عليه المراقب، واكد على العمال بأن ابنه هو رئيسهم الجديد وعليهم طاعته .

بالطبع لم يعلق مروان . فقد كانت كل حركة من حركـات ابيه لا تؤدي الا الى مزيد من الاشمئزاز منه : انه برجوازي قــذر ولا يمكن اصلاح عقليته الا بتدميرها !

★ ★ ★

ما ان فتح مروان الباب حتى وقعت عيناه على رويــدا . كانت كئيبة .. كئيبة فعلا . لكنها ما ان رأته حتى اضــاء وجهها الحليبي بابتسامة عذبة صادقة تفيض ودا وحنانا .
ــ مروان ؟
تطلع الى النافذة : اهلا ام عصام .
ثم دخل الى الحمام، غسل وجهه، سرح شعره، ارتــــدى

البيجامة، ودخل الى غرفة النوم . ولكن قبل ان يستقر جسده تماما على السرير ، كانت رويدا قد جلست على الحافة. ومدت يدها الى وجهه تتحسسه .

ببطء تناول مروان يدها، انزلها عن وجهه وقال بهدوء :

ـ رويدا : يجب ان تفهمي بأن كل شيء بيننا قد تحطم وانتهى .

ـ ولكن لماذا؟ هل فعلت ما يستحق ذلك؟ الا ترى بأنني وحيدة وبائسة ؟

تبسم مروان بأسى، وامسك يدها برفق :

ـ رويدا انت لم تفعلي معي الا كل خير . ولم ار منك الا كل طيبة. انت رائعة يا رويدا . رائعة . ولكن عليك ان تفهمي ان طريقي ليس طريقك . انت بمثابة امي وانا مثل ابنك عصام. و . .

قاطعته بحدة :

ـ كفى . ارجوك ان تتوقف عن هذه الاسطوانة السخيفة. انا احبك يا مروان . الا ترى هذا ؟ بل انني على استعداد للعيش معك الى الابد .

ـ قد يكون هذا صحيحا، لكنني تغيرت يا رويدا. انا الذي تغيرت. لم اعد مروان القديم. لقد وجدت طريقي. وانت ايضا . . عليك ان تتذكري انك سيدة متزوجة، ووجودك في غرفة شاب اعزب مسألة ليست عادية. ماذا سيقول ابنك او زوجك لو دخل علينا الان في وضع كهذا ؟

احتدت :

ـ ليذهبوا جميعا الى جهنم. ان الشيء الوحيد الذي افهمه الان هو انني احبك، ولا استطيع الاستغناء عنك ابدا. ابدا يا مروان. حرك مروان جسده فوق السرير، اشعل سيجارة،ثم همس بتوسل وحرارة :

ـ رويدا . . لماذا تدفعينني الى تصرف غير لائق ؟ انت تعلمين انني سأخطب سعاد في الاسبوع القادم. اننا متفقان، وقد وافق والدي على ذلك .

ـ تخطـب ؟

ـ نعم ، وانت تعلمين ذلك .

تأملته طويلا . صرت على اسنانها، ثم صرخت بغيظ : حتى ولو .. ثم تناولت يده، حاولت ان ترفعها الى شفتيها، فخلصها منها بعنف، وانتفض عن السرير : انت مجنونة . وخرج من البيت، ثـم صفق باب الغرفة .

★ ★ ★

كان يوما من ايام الجحيم في عمان .. انه تموز بشمسـه الشيطانية، وهوائه الساكن، وعرقه المسموم. دخل مروان الـى غرفة صغيرة بالقرب من الكسارة، وارتمى على كرسي صغير ، اشعل وابور الكاز، وضع ابريق الشاي فوقه، ثم نادى عـلى عثمان الاعرج، فبادره عثمان على الفور : ها .. ماذا فعلت ؟

ـ لقد رفض .

ـ الم تحاول اقناعه ؟

ـ انت لاتعرفه . انه عنيد، يحتقر العمال، وقد اتهمك ..

حدق فيه عثمان : بالضبط ماذا قال ؟

ـ قال بأن حكاية رفع الاجور هذه لا بد وان تكون من مشاغبات عثمان الاعرج. وبأنك تعمل على تخريب افكاري وافكار عمالـه الاخرين . وقد اقسم بأبليس انه سيتصرف .

ـ ليفعل ما يشاء . لا بد من رفع الاجور ، والا فالاضراب سيكون يوم الخميس القادم . ثم قام متجها الى عمله، ولكنه قبـل ان يصل الى الباب كان مروان ينادي عليه :

عثمان .. خذ حذرك . ان هذا الشيطان يبيت لك امـرا. انه ابي، وانا اعرفه جيدا .



(رائحة التوت . رائحة التوت البري يا سعاد)

وما ان دخلا المنتزه، حتى احست سعاد وكانها تجلس في «وادي الباذان» .. تلك البقعة المنبطحة بالقرب من نابلس في الضفة الغربية، حيث شلالات المياه الصغيرة، واشجار البوص والشربين والدفلى ، اما مروان فقد كان مشغولا برائحة التوت المنبعثة من حبيبته ..

(التوت .. التوت البري يا سعاد) .

ـ آه يا مروان .. ان الله لم يخلق بلدا اجمل من بلادنا. فلسطين هي وردة العالم . وانني اعجب كيف ان هذا المنتزه الجميل هنا وليس في الضفة الغربية . انظر ..

تطلع مروان حواليه .. كانت اشجار المشمش تحمل قراطيسا من الحب الاخضر، والعصافير تسرح فوقها، ثم تنزل كي تتنطنط قليلا على الارض بعشق وحذر. ولكن الرائحة التي كانت تعبق في انفه كانت اقوى من كل شيء في تلك اللحظات (رائحة التوت ، التوت البري يا سعاد) .

ـ اهلا وسهلا .

ونظر اليهما الكرسون، وابتسامته تسبقه على وجهه .

ـ قهوة لو سمحت .

ثم عاد مروان يحدق في اناه .. كان وجهها المدور يفيض بالحبور والسعادة. وكل قسمة من قسماته تنبض بالحب والحياة والطيبة و (رائحة التوت. التوت البري يا سعاد) .

ـ سعاد .. اتدرين ؟ انت فلسطينية .. فلسطينية حقيقية .

ومد يده، احتضن يدها، تعانقت الايدي العاشقة ، فصرخ مروان بصوت خافت :

آه .. ان الحياة جميلة جميلة، والمستقبل رائع .

ثم رفع يدها الى شفتيه، قبل باطن كفها، وكأنه يقبل فلسطين كلها .. فلسطين بكل ما فيها من غزلان ورصاص وبرتقال ودم واسرار وتوت بري .

★ ★ ★

وضع الرجل سماعة الهاتف، قام كالثـــور الهائج، ركب السيارة وانطلق بأقصى سرعة ممكنة ..

ــ هذه المرة سأمزق جلدك يا عثمان الاعرج. اقسم .. اقســـم بأبليس .

واطلق زامورا من السياة لكي تفسح له سيارة اخرى الطريق ..كان الامر بالنسبة اليه اشبه ما يكون بثورة، تمرد، عصيان.. انه لا يطيق بأن يتمرد عليه عبيد كهؤلاء . فهو الذي يطعم اطفالهم، يسقيهم الحليب، يلبسهم الثياب . انهم عماله هو . وهــو وحده الذي يقرر رفع الاجور او خفضها. هذه مسألة لا جدال فيها . حتى النقابات الحقيرة لا يحق لها التدخل. وداس على (البريك)، نزل من السيارة والغضب يفيض من كيانه كله :

ــ متى حدث هذا الاضراب ؟

ــ هذا الصباح، حضرت كالعادة الى الكسارة، لكنني فوجئــت بالخواء من حولي. انتظرت اكثر من نصف ساعة، لكــن عاملا واحدا لم يأت . فاتصلت بك على الفور .

ــ الكلب عثمان .

ثم نفخ في الهواء بعصبية، واخرج سيجارا فخما من جيبه.

ــ اتعرف بيتــه ؟

ــ مــن ؟

ــ عثمان الكلب. الا تعرف من؟ انه هو وحده المسؤول عن كــل هذا . اين بيته ؟

ــ في مخيم الوحدات .

وصعد المراقب في السيارة، ثم انطلقا معا الى بيت عثمــان والرجل ما زال يردد :

ستدفع الثمن يا عثمان . اقسم، اقسم بأبليس !

★ ★ ★

لم يكن الحاج قاسم من قبل قد كلف نفسه عناء التوغل في مخيم الوحدات رغم انه يسكن عمان منذ عام ٤٨. لذلك ما ان طالعته البيوت المهتراة، والشوارع الترابية الضيقة بروائحها العفنة ، حتى بدا الاشمئزاز واضحا على وجهه .

ـ انا لا اعرف كيف تعيش هذه الحثالات . بل ولا ادري لماذا تعيش ! نعم .. لماذا ؟

احس المراقب بالسكين تلعب في احشائه . فهو منهم شاء ام ابى. ومع ذلك لم يجد ما يفعله سوى ان يبتسم بخنوع .

ـ هؤلاء الاطفال العراة الحفاة .. اولاد العتالين وعمال الكسارات والمطاعم والفنادق ومنظفو المجاري .. اهؤلاء هم الذين سيحررون فلسطين ؟

وبصق في الهواء . اعاد الريح بعض البصاق الى وجههفثار:

ـ اولاد المخيمات هؤلاء .. كلهم اولاد حرام ، كلهم . فأنا اعرف كيف يعيش اباؤهم . اعرف كيف يحشرون اجسادهم المسلولة في علب السردين هذه . وما ان يخرج عامل منهم الى الورشة حتى يأتي اخر ويندس بين فخذي زوجته . كلهم .. كلهم اولاد حرام. وحق ابليس انهم كذلك.

ـ هنا يا سيدي ، هذا هو بيته .

اوقف الحاج قاسم السيارة ثم نزل. اراد المراقب ان ينزل ايضا، لكن اشارة من يد الحاج جعلته يتسمر في مكانه .

ـ عثمان، عثمان الاعرج .

كان الصباح لا يزال مبكرا. ولكن ليس بالنسبة لاهالي مخيم الوحدات . فهم جميعا يفيقون مبكرين.

ـ اخرج. اخرج يا عثمان .

كان الرجل يصيح بغضب وانفعال، لكن رؤيته لوجه عثمان، وهو يفتح الباب القصديري، بشعره المنكوش، جعلت قلب الرجل يرتجف قليلا فخفف من لهجته :

ـ تعال .

ثم اضاف بلهجة اشبه ما تكون بالانكسار : من فضلك .

كان عثمان يحدق فيه بثبات ، وبريق صارم يطل من عينيه.

ـ تفضل . ان بيتي ليس مزبلة على اي حال . واطفالي خالون تماما من الامراض المعدية .

صرخ الرجل بلا وعي : ما الذي يثبت ذلك ؟

حافظ عثمان على هدوئه ولم يبد عليه اي انفعال: ابنك هو الذي يثبته يا حاج !

ـ ابني؟ ما علاقة ابني في هذا ؟

ـ انه في الداخل يشرب الشاي .

فاحتد الرجل اكثر : ابني ؟ ابني انا في الداخل؟ اقسم بأبليس ان هذا الولد التافه لا يمكن ان يكون من عائلة الراعي . لقد فسد .. افسدته انت كما افسدت العمال الاخرين .

انت يا عثمان، افسدت علي كسارتي وحياتي، لكنني سوف اريك . اقسم .. اقسم بأبليس .

ودفع الرجل الباب القصديري ثم دخل . كان البيت يتكون من غرفتين صغيرتين وقد جلس مروان في احداهما، وانحشرت زوجة عثمان واولادها في الغرفة الثانية .

ـ اهلا ابي .

ـ انا لست اباك . ماذا تفعل هنا ؟

ارتبك مروان : اجلس يا ابي اولا اجلس.. ان الامور لا يمكن ان تحل هكذا .

صرخ الرجل : اخرس انت .

ثم تطلع الى عثمان بغطرسة : اسمع .. لا اريد كلاما كثيرا. سأرفع يوميتك ربع دينار . ولكن يجب ان لا يتكرر هذا الشغب مطلقا لا اريد ان يتكرر .

وضع عثمان كوب الشاي امام الرجل وقال : القضية يا حاج ليست قضيتي وحدي. انها قضية عمال الكسارة جميعا، وربما قضية العمال في جميع العالم .. اتفهم ؟

ــ انت شيوعي . اقسم بأبليس انك شيوعي، ومع ذلك ما قولك في نصف دينار ؟
ــ قلت لك انها ليست قضيتي وحدي .
ــ دينارا كاملا شرط الا تخبر احدا .
ــ يا حاج افهمني . انا اريد ان اوضح لك القضية، لكنك لا تمنحني الفرصة، لم لا تتكلم يا مروان ؟

تنحنح الشاب، اراد ان يقول شيئا، الا انه سمع والده يصرخ : ولا حرف ..

ثم ضرب بقبضته على الطاولة وهو ما زال يحدق في ابنه: هذه المرة سأعرف كيف اؤدبك. اقسم على ذلك، اقسم بأبليس.

ارتج كوب الشاي فوق الطاولة الخشبية العتيقة ، ثم ترنح وسقط على الارض، فاندلق السائل، لكن الكوب لم ينكسر.

ــ اسمع عثمان .. كم تريدون ؟
ــ نصف دينار زيادة يومية لكل عامل .
ــ نصف دينار؟ الا يكفي ربع دينار لكل واحد منهم، ودينار كامل لك انت ؟

هز عثمان رأسه وهو يتجه بوجهه الى ناحية اخرى: طيب طيب .. ربع يكفي ولكن لنا جميعا، وعلى حد سواء .

فأحس الحاج قاسم بالاشمئزاز المفاجيء يقتحمه .. الاشمئزاز ، الاشمئزاز :

ــ مثاليون . فوضويون .

ثم قبض على يد مروان ووقف : قم انت معي .. اريدك في مسألة خصوصية . شد مروان يده من يد ابيه، وقف ثم سارا، لكن الرجل ما ان فتح الباب القصديري، حتى استدار فجأة وهدر :

ــ ولكن يا عثمان الاعرج تذكر بأننا نحن عائلة الراعي لا نهزم بسهولة . اقسم ان احدا لن يهزمنا . اقسم بأبليس .

وخرج وهو يغلي ..

الفصل الثالث

حين يطل وجهك الشاحب يضحك الارز في الحقول .
ويضحك العوسج والنارنج والاطفال .
والبرتقـــال
حين يطل وجهك الشاحب تضحك الدوالي والندى والقمح
والشوفـــــان .
يا وطني — وتضحك الغدران
يلوّح العشاق بالمناديل
يكللون وجهك الشاحب بالنرجس والريحان
وتضحك البومة والقنفذ والعصفور
والحطب المبلول والصابون والتنوّر
ويضحك الاسمنت والوحل ونيران الشتاء
ويضحك الخباز والحمال والبناء .
فينزعون من عظامهم لحظة متاعب الزمـــان
ويهرعون ، يهرعون .. يهرع الفلاح والشرطي والصياد
تهرع الجيـــاد
يهرع الابرص والمسلول والضرير
يهرع البائس والقانط والفقير

ينفجر الصيف، يطنّ النحل، يزهر الدخان في المصانع
يعانق النمل حبوب القمح، تغرق الشوارع
بالكرز الاحمر والتفاح
ينتشر الفراش والاوز والعناكب
بين نواعير الجراح
ويرتدي الاطفال ثوب العيد
تنفتح الجروح ، يخرج الصديد
يا وطني ..
يا وطن النيران والجياع والحديد !

★ ★ ★

وضع عبد التواب المجلة على الطاولة ثم قال :

ـ شيء عجيب يا مروان .

ـ ما هو العجيب ؟

ـ صابر. انه عجيب فعلا. ان الذي يدري بأمراضه الجسدية لايمكن ان يتوقع منه ان يكتب عن الوطن. وفي لحظات مرضه هذه بالذات .

نقر مروان الطاولة بأصبعه :

ـ لكن الذي يعرف نفسيته وطبيعة معاناته ، لا يمكن الا ان يتوقع منه اشعارا كهذه . انك يا عبد التواب تظلم صابر كثيرا . انه اطيب مخلوق على وجه هذه الارض. لا يمكن ان تتصور مدى براءته وصدقه وحبه لوطنه وللعالم من حوله. انني استغرب كيف تفوتك حقيقة ساطعة كهذه . تناول عبد التواب بقية كأس العرق، وجرعه دفعة واحدة، ثم ضحك ضحكة قصيرة :

ـ تفوتني انا؟ انا؟ انا الوحيد الذي لا يمكن ان تفوتني حقيقة صابر. اندري يا مروان؟ اتدري .. سأعترف لك الان بشيء

انت تجهله : انني احب صابر .

رد مروان بدهشة حقيقية :

ــ تحب صابر ؟

ــ اكثر من نفسي، اكثر من اطفالي. اكثر منك . اكثر من اي مخلوق اخر في هذا الكون . ان صابر يعذبني في الليل وفي النهار. انه يجلدني في كل خطوة اخطوها. كانت حياتي سعيدة قبل ان اعرفه . كان العالم بالنسبة لي مجرد مصالح شخصية، وعلي ان ابتز منه كل ما استطيع ابتزازه ، لكنني حينما التقيت صابر بكل ما فيه من صدق وحماس واصرار على العيش الشريف، اكتشفت مدى الهوة التي اغور في اعماقها. اكتشفت انني صغير امامه، تافه، لا قيمة لي . صار صابر رمزا للشرف والاخلاق والوطنية والانسانية والمثل العليا التي كنت افتقدها واحس انني بحاجة اليها. وبان الالم الحقيقي في عيني عبد التواب وهو يقول :

ــ آه يا مروان . ان صابر ضميري . ضميري . هل تفهم هذه الحالة جيدا؟ هل تفهمها يا مروان ؟ ثم دق كلتا يديه على الطاولة مناديا على النادل بصوت مرتفع :

ــ هات كمان ربعية عرق يا طعمة . هات بسرعة .

نظر اليه مروان، وهو لا يكاد يصدق ما تسمع اذناه . لقد فاجأه عبد التواب بهذه المشاعر . لا بد ان العرق الذي التهمه هو الذي دفعه لمثل هذه الاقوال، ولكن .. من يدري .

ــ اذن انت نادم يا عبد التواب على تصرفاتك مع صابر ؟

ــ نادم؟ هه .. انني نادم وناقم على نفسي وعلى صابر وعليك وعلى العالم من حولي.. انت لا تعرف يا مروان ما معنى ان يتورط الانسان في مسألة ما، ثم يكتشف بعد فترة ان عليه ان ينسحب. انت لا تعرف ما معنى ان يعيش الانسان في الوحل، وهو يعي حالته جيدا .. من منا يا مروان لا يرغب في

ان يغتسل من خطاياه ؟ من ..

قال مروان بسرعة :

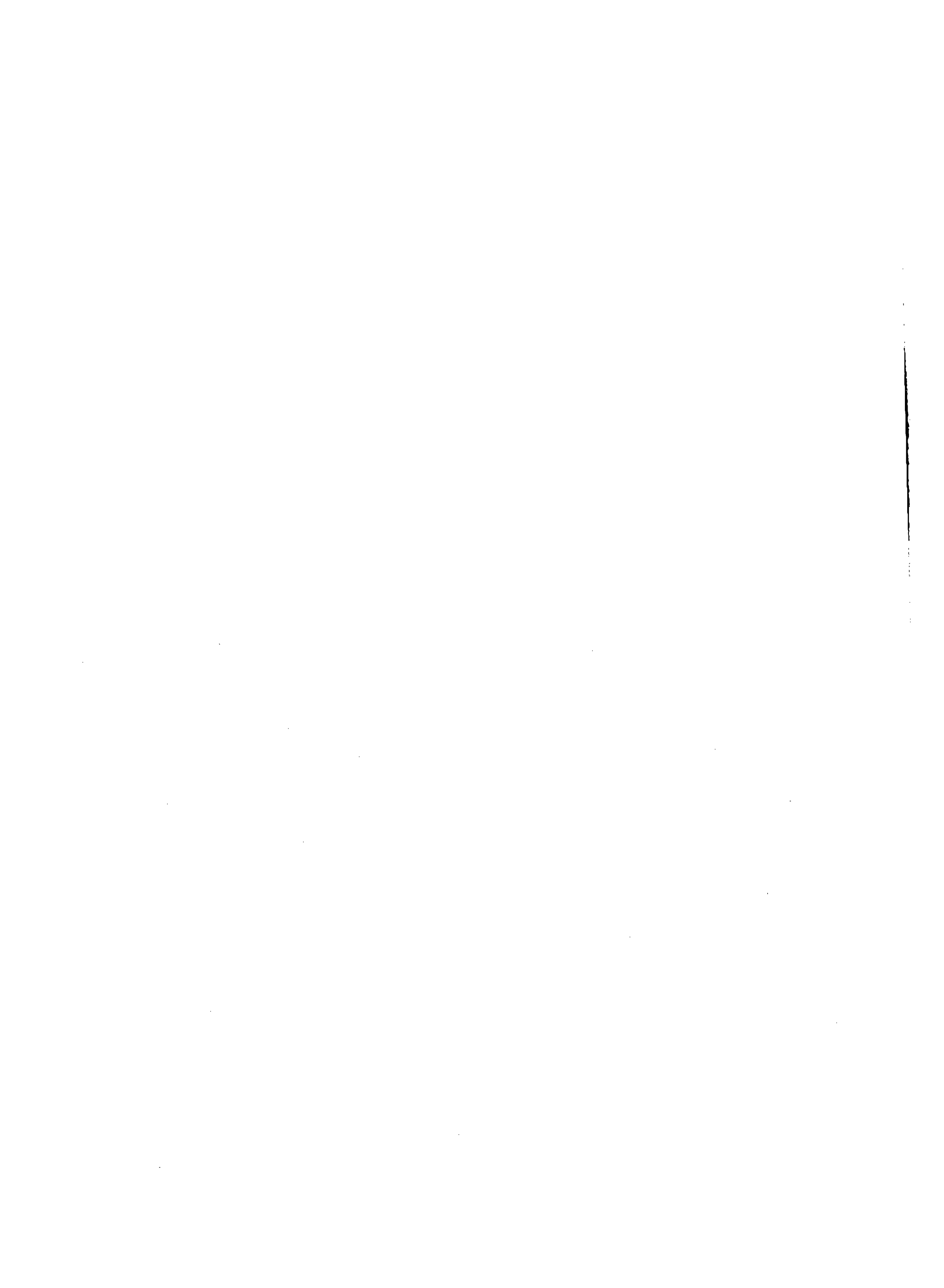
ـ اسمع . علينا الان ان نمضي .

ـ نمضي؟ ولكنني طلبت ربعية عرق .

ـ لا يهم . علينا ان نمضي .

ـ ولكن .. الى ايـن ؟

ـ سنذهب الى صابر .. سنزوره في المستشفى سويا .



القسم الرابع

عثمان الأعرج

الفصل الاول

في الايام التي تلت الاضراب ، لاحظ عثمان الاعرج ان الحاج قاسم صار يكثر من زيارة الكسارة، وكان باستمرار يرافقه شاب اصلع قصير القامة. كما لاحظ ان معاملة المراقب له قد اختلفت .. صار يتودد له، ويستشيره في قضايا العمال، والعمل على تحسين اوضاعهم. وكذلك اخذ يظهر امامه التذمر من الحاج قاسم ومن طريقة معاملته له. لكن عثمان ظل متحفظا ازاء هذا كله. بل انه في احدى المرات صارح نفسه قائلا: ان في الجو رائحة غريبة. لا بد ان امرا ما سيحدث . وفعلا .. ما ان مضت ايام قليلة، حتى فوجيء عثمان في احدى الليالي بسيارة عسكرية تقف امام بيته، ثم بطرق سريع متلاحق على الباب . ولاشعوريا وجف قلب عثمان. قام عن سريره، فتح الباب القصديري فوجد نفسه وجها لوجه معه .. مع الرجل الاصلع الذي كان يرافق الحاج قاسم .

– نعم ؟

اخرج الرجل من جيبه بطاقة صغيرة : أمن .

ثم نادى اثنين اخرين كانا يرتديان ملابس مدنية، وامرهما بتفتيش البيت تفتيشا دقيقا.

في تلك الليلة كان مخيم الوحدات قد استسلم لذلك الهدوء المشوب بالحذر الذي اعتاده الناس بعد خروج المقاومة من عمان. البيوت كانت تبدو ساكنة، لكن اقل حركة يمكن ان تحولها الـى هدير صاخب يحرق كل شيء. كل الوجوه كانت تبدو عادية، لكن النفوس تغلي من الداخل، تمور بالقلق والاضطراب، وتحمل فـي حشاياها كل بذور النقمة والاحتجاج والغضب .

فتح احد الجيران الباب ودخل : ماذا يجري يا عثمان؟

ـ رجال الامن .

وقبل ان يعلق الرجل بكلمة واحدة، كان الاصلع قد امـره بالخروج والا فأنه سيعتقل فورا .

خرج الرجل وعيناه ما زالتا تسلقان الاصلع بنظرات حادة. ولما سأله احد الجيران الذين ابتدأوا بالتجمع حول البيت عمـا يجري، قال له : انهم يداهمون عثمان .

ـ مـن ؟

بصق الرجل بصوت مسموع وهمس : مخابرات !

وازداد التجمع حول بيت عثمان .. اطفال، شباب، نسـاء، شيوخ. كان الجميع يشعرون بأن غريبا طارئا قد اقتحم عليهم عالمهم الخاص . ومع ذلك ظل التفتيش جاريا.

اقترب عثمان من زوجته : خذي الاولاد واذهبي عنـد احد الجيران .

ولما تلكأت قليلا صرخ فيها : قلت لك اخرجي.

كانت المرأة تغالب الدموع في عينيها، وتحاول مستميتة ان تفهم شيئا عن هذا الخطر الذي داهم حياتها فجأة. حينما خرجت، اقترب منها احد الجيران متسائلا :

ـ كلاب الصيد هؤلاء .. ماذا يريدون ؟

كانت المرأة تحمل طفلها الرضيع بين ذراعيها، بينما امسك طفلان اخران بطرف الثوب: انهم يفتشون البيت .

ـ على مـاذا ؟

ـ لا اعرف .

وانهمرت الدموع من عينيها فبان الغضب على وجوه كل الحاضرين، اراد احد الشباب ان يدخل البيت عنوة، الا ان اخر منعه : اي حركة قد تؤدي الى مقتل عثمان او مقتل احدكم.

كان رجال الامن قد قلبوا البيت راسا على عقب. فتشوا خزانة الملابس الوحيدة، المكتبة، سرير النوم، زير الماء المهجور، فتشوا كل شيء حتى كادوا ييأسون. الا ان احدهم هدر فجأة:

ـ افتح هذا الجارور الصغير .

لمعت عينا عثمان : لا يوجد به شيء !

ـ مع ذلك افتحه .

ـ المفتاح مفقود منذ مدة طويلة .

وبان الارتباك على وجه عثمان ..

ـ اذن سنكسره .

وقبل ان يسمع جوابا حمل احدهم حجرا كان يقبع خلف باب الغرفة، ضرب الطاولة بعنف ثم شد الجارور فذهل: انظر..

كانت ثلاثة مسدسات وبعض العبوات الناسفة تستقر جنبا الى جنب مع بعض المنشورات الشيوعية.

هم عثمان بالحركة باتجاه الباب الا ان الاصلع اعترض طريقه : لا تحوجنا الى استعمال السلاح .. اصعد الى السيارة دون احداث اي ضجة .

سار عثمان والاصلع يتبعه بينما حمل احد الرجلين الاخرين المنشورات والسلاح ثم انطلقوا جميعا الى السيارة .

كان معظم الجيران قد تجمعوا في تلك اللحظة امام بيت عثمان، بانتظار ما يسفر عنه التفتيش .

ولما رأوه يسير امام رجال الامن، اقترب شاب غاضب من السيارة واسند ظهره على بابها، ثم اقترب ثلاثة اخرون في محاولة لسد الطريق، والحؤول دون صعود عثمان .

ـ ابتعدوا عن السيارة .

لم يتحرك احد ..

ـ قلت ابتعدوا ، والا فأن دماء كثيرة ستسيل في هذا المساء.

ثم اقترب رجل الامن من احد الشباب، ضغط على خاصرته بفوهة المسدس فأبتعد الشاب قليلا ، وابتعد الثاني، الثالث ، الرابع ..

فتح الرجل باب السيارة ، دخل احدهم اولا. دخل عثمان بعده. ثم تبعهما الرجلان الاخران . وما ان ابتدأت السيارة بالهدير حتى عاد الاهالي الى التحلق حول بوزها . رجعت السيارة الى الوراء لحقها الناس، حاولت الاستدارة حاصروها من جديد، فصرخ الاصلع في احد رجاله : اطلق .. ودوت رصاصة في سماء مخيم الوحدات .

ابتعدوا عن السيارة قليلا .

دوت رصاصة ثانية .

فابتعدوا ، اكثر، اكثر .. ومرقت السيارة بينهم كالسهم، فانطلق بعضهم راكضين خلفها : مخابرات .. مخابرات !

وهكذا امضى عثمان الاعرج تلك الليلة في المخابرات الاردنية، كما امضى اهالي مخيم الوحدات نفس تلك الليلة في الحديث عن الارهاب والقهر والحزبيين والمخابرات وخروج الفدائيين والمقاومة السرية .

الفصل الثانـي

(هذا هو اليوم السادس لمكوثي في الزنزانة دون ان يسألني احد ما الحكاية) ووقف على قدميه، فاصطدم راسه بالسقف.. كان ارتفاع الزنزانة اقل من ان يستطيع عثمان الاعرج الوقوف فيه منتصبا . لذلك حنى راسه، قوس ظهره قليلا، وابتدأ السير ذهابا وايابا : ثلاث خطوات قصيرة في الذهاب. ثلاث خطوات قصيرة في الاياب ..

(لربما داهموا بقية الرفاق . آه)

وتلقائيا مد يده الى جيبه ليتناول سيجارة، لكنه اكتشف للمرة الرابعة او الخامسة ان الدخان كان قد نفذ منه منذ الليلة الاولى للمداهمة .

امس حينما قدم له الشرطي الغداء، اراد عثمان ان يستوقفه قليلا،ليسأله عن ساعة المثول امام مسؤول السجن،الا ان الشرطي رمقه بتحد وقال : فيم العجلة ؟ انتم الشيوعيون طويلو النفس. هل فرغ صبرك ؟

ثم بصق على الارض، ومضى دون ان يلتفت خلفه.

(آه . اخشى ان يعتقلوا مروان الراعي ورفيقيه، فيعترفون بكل شيء). لكنه بعد لحظات تذكر انه ليس لديهم شيء يستطيعون

افشاءه. فمروان ليس اكثر من نصير في الحزب، وكذلك العاملين الاخريـن .

كانت العتمة تسود الزنزانة الصغيرة. الصمت المرعب يخيم فوق الجدران والهواجس وحدها هي التي تسرح كالأفاعي فـــي نفوس المساجين .

ـ عثمان الاعرج . مطلوب ...

وفتح الشرطي الباب الحديدي الضيق، وضع «الكلبشـــة» فـــي يديه ثم اقتاده في دهليز معتم طويل . داخل احـــــدى الزنزانات كان صوت احد السجناء يصرخ بحدة : خونة. عمـلاء. لكنه بعد لحظة اخذ يستجير : انا دخيل عرض الملك !

كز عثمان على اسنانه : (الدور القادم دوري) .

ورغم انه كان يتوقع هذه اللحظة منذ امد بعيد ، ورغم انه كان قد هيأ نفسه لها، مع ذلك فقد احس برجفة تجتاح كيانـــه كلـه : (رجفة غضب ربما. رجفة حزن ربما. لكنها بالتأكيد ليست رجفة الخوف) هكذا قال عثمان لنفسه . واسرع في مشيتـــه قليلا . كان شيء ما يدفعه دفعا من الخلف : (ماذا لو اضرب هذا الشرطي واهرب؟) . لكنه في نفس اللحظة ادرك ان الشيطـــان نفسه لا يستطيع ان ينجو من سجن كهذا. انها محاولة عقيمة.

ـ هنـا ..

واشار الشرطي الى احد الابواب ففتحه عثمان ودخل. كان ضابط اسمر اللون يجلس على احد المقاعد ، وامامه طاولة عاريـة مـن كل شيء الا من علبة سجائر .

ـ اهلا استاذ عثمان . عفوا عفوا .. اقصد رفيق عثمان. وابتسم الضابط بنعومة ..

ـ تفضل اجلس .

ثم نادى الجندي، طلب منه ان يحل قيده، ويحضر فنجانين مـن القهوة .

ـ سيجـارة ؟

مد عثمان يده، تناول السيجارة، قام الضابط واشعلها لـه ثـم عاد الى مكانه من جديد.

– اسمع عثمان .. في البداية اريد ان اوضح لك جانبا مهمـا من التحقيق او المناقشة كما احب ان اسميها انا. هذا الجانب يتعلق بدورنا نحن كرجال للمخابرات . فالواقع اننا لسنـا كلاب صيد كما يطيب لكم تسميتنا. ولسنا من هواة تعذيـب الناس او مضايقتهم . ما اريد ان تفهمه هو اننا اناس مثلكم .. اناس من لحم ودم. لكننا مضطرون الى الحفاظ على الامن في البلد. مضطرون الى حماية الوطن والمواطن من العابثيـن . وكذلك مضطرون الى حماية صاحب الجلالة، لان حياته كمـا لا يخفى عليك تظل دائما فوق كل اعتبار. تذكر عثمان عندها، ذلك الرفيق الذي اراد ان ينسف تمثال «الله، الملك ، الوطن» المنتصب في جبل عمان، لكنهم اعتقلوه قبل ان يفعلها. وتذكر حسين سمارة الذي كان يحقد على الصدفة التي جعلت اسمه كأسم الملك .. تذكر هذا فكاد ان يبتسم، لكن شفتيه مع ذلك لم تسعفاه .

– بالطبع انت تفهم هذه الامور جيدا. حياة المواطنين والوطـن مرتبطة بحياة سيدنا . والعكس صحيح . انها علاقة ديالكتيكية كما تسمونها انتم. انت تفهم .. اليس كذلك ؟

هز عثمان رأسه بعصبية : افهم .. افهم .

– جميل جدا . اذن نحن متفقان في اكثر القضايا. وانا واثـق انك لن تضطرنا الى استعمال الوسائل القبيحة معك. انـت اذكى من ان تسلك هذا السبيل. الاغبياء وحدهم هم الذيـن يفعلون ذلك. ومن اجل ماذا يا عثمان؟ أمن اجل ان يقـول الانتهازيون عنك انك بطل، وهم في نفس اللحظة يشمتون بك؟ انها بطولة زائفة .. بطولة تستهلك اعصاب الانسان وشبابـه وراحته، لان ما من معركة ربح فيها احد. صدقني. وابتسم ... تأمل عثمان وجه الرجل، تقاطيعه الحادة، اثار جرح قديم

عند احدى عينيه، ابتسامته الناعمة، ابتسامته القاتلة ، ابت...
وتوقف عند ابتسامته : (ابتسامته وحدها هي التي تبعث الحنق في نفسي، وتجعلني اغلي) .
ـ بالضبط، ان ما نريد ان نعرفه منك، متعلق بتلك الكمية البسيطة من الاسلحة التي وجدناها في حوزتك . طبعا.. انت لا تنكر انها ضبطت في بيتك . واطلق ابتسامته ..
ـ هذه الاسلحة نريد ان نعرف من اين جئت بها. من اي بلد ؟ من اوصلها؟ كيف تم ذلك؟ لماذا؟ فقط .. هذه هي الاسئلة المطلوبة ! وعاد يبتسم ..
كانت الاسئلة تنهال على راس عثمان الاعرج كالمطارق . لكن الابتسامة ظلت هي السلك الكهربائي المزعج الذي ينخر في اعصابه (ابتسامته .. ابتسامته .. ابتسامته ..)
ـ ها .. ما بالك لا ترد ؟ اظن انها جميعا اسئلة مشروعة . وما عليك الا ان تتصور نفسك في مكاني،حتى تتأكد من ذلك بسهولة.
وابتسم ربما للمرة الثامنة او العاشرة او المليون . ربما..
ـ تأكد يا رفيق عثمان اننا لا نريد لك الاذى . لكن .. يجب ان تساعدنا وتساعد نفسك . يجب ان تعترف لنا بمغامرتك الصغيرة الخاسرة هذه، فتقول لنا كل شيء. وبعد ذلك ستخرج من هنا كما تخرج الشعرة من العجين. وطبعا .. يجب ان لا تنسى انك متزوج . اتحب ان تفجع بك زوجتك حين تخرج من هنا وانت مصاب باحدى العاهات، كأن تكون مخصيا مثلا .. اتحب هذا ؟
وابتسم من جديد ..
دخل الشرطي . وضع فنجانا من القهوة امام الضابط، فتناوله بسرعة، وضعه امام عثمان، ثم تناول الفنجان الثاني لنفسه .
ـ المسالة اذن تتلخص في اعتراف صغير من جانبك، ثم ينتهي كل شيء بعد ذلك . ها .. ماذا قلت ؟
تطلع اليه عثمان بثبات :

– ماذا تريدني ان اقول ؟
– الاسلحة ! تحفز عثمان قليلا ، تناول سيجارة عن الطاولة ، اشعلها من سيجارته الاولى، سحب نفسا عميقا وقال ببطء: انا لا اعرف شيئا عن هذه الاسلحة .

ابتسم الضابط ابتسامته الناعمة ..

– رفيق عثمان .. انت بالطبع تعرف الدكتور سعادة. انه حزبي عتيق. لكن الشيء الذي لا تعرفه عنه الان هو حالته الصحية. اتحب ان تراه ؟
– انا لا اعرف هذا الشخص ، وليس لدى الرغبة في رؤية احد.

اتسعت ابتسامة الضابط (انه يبتسم. يبتسم. يبتسم) .

– لا يهم . على الاقل لا بد انك قرات للناقد المعروف عبد التواب، او ربما انك تعرفه شخصيا فهو صديق لشريكك الشاعر صابر مطر، وعضو سابق في حزبكم . وقد كان يمكن ان يتعرض لما تعرض له الدكتور سعادة لولا انه اعترف بكل شيء فأخلي سبيله . واوضاعه الان فوق الريح كما تعلم . بشرفك.. الا تطمح في ان يكون لديك سيارة كسيارته ؟ ام ترى ان هذه بدعة برجوازية ؟ واطلق ضحكة داعرة، فصرخ عثمان :
– قلت لك انني لا اعرف احدا. لا اعرف..

قام الضابط عن مقعده فجأة ، واقترب من عثمان :

– على مهلك . على مهلك .. لماذا تصرخ هكذا ؟ انا لم اسألك بعد عن اوضاعك التنظيمية، ولا عن خلايا الحزب، ولا حتى عن علاقتك الحقيقية بصابر مطر. خذ سيجارة . خذ ..
– لا اريد .

افلتت من عيني الضابط نظرة حقد وكراهية ، فكز على اسنانه :

– بل تريد. ثم قرب العلبة من وجه عثمان .
– قلت لك لا اريد .. لا اريد .

مد الضابط يده اليسرى الى راس عثمان ، قبض على شعره المنكوش، شد رأسه الى الوراء. قرب اليد الثانية، ضغط بالعلبة

كلها على شفتيه واسنانه وراسه، ثم صرخ: حينما اقول لك دخن فعليك ان تفعل ذلك . ان لينين نفسه لا يجرؤ ان يرفض لي طلبا. اتفهم ؟ وسحق الدخان بعنف على وجه عثمان. لكنه بعد لحظة تركه، وعاد الى الوراء لاهثا : انا اسف. لكنك متعب، وقد اضطررتني الى ان افعل هذا مرغما. ثم اطلق ابتسامته الناعمة، ونادى على الشرطي وهو ما زال يفرج شفتيه ويفعلها : دعه يلقي نظرة على زنزانة الدكتور سعادة .

دخل الشرطي، وضع «الكلبشة» في يديه، ثم سارا معا وعثمان ما زال يكتم غيظه وحنقه من ابتسامة الضابط الناعمة ..

راحا يتنقلان من دهليز الى اخر وكلها دهاليز خافتة الاضواء نزلا بعض الدرج، ثم سارا في عتمة شبه كاملة، الى ان امره الشرطي فجأة بالوقوف. عند ذلك اخرج لوكسا من جيبه واطلق النور على احدى الزنازين .

ـ انظر ..

تطلع عثمان داخل الزنزانة الصغيرة، فراى شيئا ما اشبه ما يكون بجثة صغيرة، تلتف ببطانية سوداء ولا يبدو عليها اي اثر للحياة. كان الرجل مثل كيس من الخيش يتكوم في احدى الزوايا، وقد بان على وجهه شحوب فظيع رغم اثار التورم والجروح. وقع الضوء على عيني السجين اللتين اعتادتا الظلمة، فحرك الرجل بقاياه ببطء شديد واخرج صوتا ضعيفا اشبه ما يكون بالمواء : اي كلب انت؟ ثم رفع يديه في حركة مقاومة يائسة فبدت عيناه وقد اطفيء النور فيهما تماما. عندئذ لم يتمالك عثمان نفسه فصرخ بأعلى صوته :

ـ فاشيون ..

ودوت الصرخة في دهاليز السجن : فاشيون ..

ـ خنازير .. وردد الصدى من جديد : خنازير ..

ـ صهـا ..

وقبل ان يكمل كلمة صهاينة، كان الشرطي قد سدد الى راسه ضربة ساحقة من عقب بندقيته، فهوى على الارض بلا حراك .

الفصل الثالث

(ها هم قد اهملوني ثانية . الظلام مسألة سخيفـة ،ورائحة البول اصبحت لا تطاق . لكـن هذا كله لا يهم . المهم الان هـو الماء .. جرعـة صغيرة تكفي) .

وعاد يسير في الزنزانة محني الراس ، مقوس الظهر : ثلاث خطوات قصيرة في الذهاب . ثلاث خطوات قصيرة في الاياب .

(ترى .. ماذا تقـول الآن زوجتي ؟ كيف تعيش الان .. كيف ؟)

واحس عثمـان الاعرج بعشرات الغصص تتجمع في حلقه. ان النضال مسألة شاقـة معقدة وتحتاج الى كثيـر من الضحايا. نحن سماد الارض كما قال صابر مطر ذات مرة .

(أين هو صابر الآن .. في بيروت ؟)

واحس بلسانه يكـاد يتحول الى قطعـة خشبيـة متيبسة في فمه . العطش . لقـد تعمدوا ارسال طعامهم القذر بلا مـاء. العطش .. العطش ..

(من يصدق ان تلـك البقايـا هي جسد الدكتور سعـادة؟ اعمى ؟ آه .. لا بد انه قـد ذاق كل اصناف العذاب . ان هـذا الطبيب الاردني مناضل .. مناضل حقيقي) .

وقرفص عثمـان فـي ركـن من اركـان الزنزانـة، وابتدأ يبول بصمت. (ترى .. مـن ايـن يجيء هـذا البـول ؟ انه يومي الثاني دون ان اذوق الماء . ليتهم قطعـوا عني الطعـام . اما الماء ..)

وكاد عثمـان ان يصرخ من العطش ، الا انه تذكر ان هـذه الوسيلة ليست سوى البدايـة . كيف اذن لو يطفئون عينيه غدا كمـا فعلوهـا مع الدكتور سعادة ؟

ثم قام ، وثانية راح يذرع ارض الزنزانة الضيقـة : ثـلاث خطوات قصيرة في الذهاب . ثلاث خطوات قصيرة في الاياب .

ـ ها .. الا تطلب شيئـا ؟

رفع عثمـان راسه فاصطدمت عيناه بعيني الضابط الاسمر. ودون ان يدري وجدهمـا تنزلقـان لتحطـا مجددا على شفتيه .. نفس الابتسامة .. الابتسامة الغريبة الناعمة ..

ـ نحـن لا ننسى ضيوفنا . وخصوصا رجال المقاومـة والشيوعيين . فكيف اذا كان الزائر يـجمع الصفتين مثلك ؟

وابتسـم ..

ـ عسكري . اخرجه من الزنزانة .

تقدم الشرطي . فتح الباب الحديدي ، وضع الكلبشة في يدي عثمـان ، وسار الثلاثة الى ان انتهيا الى غرفة معتمة تماما. فتـح الضابط الباب ، امسك بيدي عثمـان ، اجلسه على مقعد، ثم اغلق الباب خلفه . (العطش) .

ـ انت عنيد يا عثمـان . وقلبك قاس عـلى زوجتـك واهلك واصدقائك . مع ذلـك فأنا ما زلت آمل في ان تغيـر رايك . المسألة كلهـا بيدك . بيدك وحدك . (العطش) .

وفجأة لمس الضابط زرا كهربائيا ، فأنارت الغرفـة بشكـل ساطع . تطلع عثمان حوله فاصيب بالذهول .. سياط ، سكاكين، خيزرانـات ، كلاليب ، بقع دم ، اسـلاك ، ادوات كهربائيـة ، شفـرات ، حبال ، مواد كيماويـة .. واشياء اخرى كثيـرة

وغريبة .

ـ لا تخش شيئا . انها ليست لك . انها للدكتور سعـادة وامثاله . وابتسم ..

ـ عسكري . احضر لي بعض الماء المثلج .. (العطش .. العطش ..)

ـ الاسلحة . ها .. الا تريد ان تعترف ؟

رد عثمـان بقوة : قلت لك انني لا اعرف شيئا .

دخل الشرطي ، وضع ابريقا بلاستيكيا معبأ بالماء ، وفـي وسطه كتلة كبيرة من الثلج

(العطش .. العطش .. العطش ..)

تناول الضابط الابريق ، وابتدأ يشرب بصوت مسموع ..

(العطش .. آه

آه .. العطش

العطش .. آه .. آه)

وتطلع عثمان الى الماء بحرقة والم .. كاد ان يقف على قدميه ويهجم على الابريق . الا انه ادرك ان حركة كهذه لن تؤدي الا الـى مزيـد من الاحباط .

ـ بالطبع سأسقيك . انا اعلم انك عطشان . ولكن قبل ذلك قل لي .. ما رأيك في ابو عمار ؟

ام ترى انك من جماعـة « ابو النوف » ؟

ـ . . .

ـ والحل السلمي ؟ انتم الشيوعيون تؤيدون الحل السلمي. انكم تلتقون مع الامبرياليـة في هذا الطرح . دائمـا هنـاك نقاط التقاء . فمثلا انتم تناضلون ضدنـا وضد اسرائيل ، ونحن تناضل ضدكم . لكـن النضال هو مـا يجمعنـا كلنا . اليس كذلك ؟

ـ . . .

ـ كان بودي لو اسمع راي صاحبك صابر مطر . لقد نفـذ من تحت السكين هذا الشاعـر الكلب .. اعتقـد انه من جماعـة

جورج حبش .
وابتسم ثم تناول الابريق ، جرع جرعة اخرى ، وبصوت مسموع : اح .. ان الماء لذيذ في الصيف ، خصوصا اذا كان في وسطه قطعة كبيرة من الثلج كهذه .
(العطش .. ال ..ع .. طش ايها السادي القذر .. العطش)
ـ تشرب ؟
وبسرعة قذف الماء وقطعة الثلج في وجهه . وقبل ان يتحرك عثمان ، او يتفوه بحرف كان حذاء الضابط يلكمه على خده واعلى رقبته .
ـ شيوعي . كلب احمر .. ها ؟ فدائي .. ها ؟
مسح عثمان وجهه بظاهر يده نظر الى الماء المدلوق على ارض الغرفة . تمنى بينه وبين نفسه لو يستطيع ان ينحني على الارض ويلعق لو قطرة واحدة منه ، الا انه لم يحرك ساكنا .
ـ عسكري ..
ورفع الضابط اصبعين من اصابعه . بعد لحظات كان رجلان شرسان يقتحمان الغرفة ، وبيد كل منهما خيزرانة رفيعة .
ـ انه عطشان . قدما له الوجبة الاولى من الماء .
وابتسم ..
احس عثمان بدوار خفيف في راسه ، الا انه نسي كل شيء عدا الرجلين .. (هذه هي اللحظات التي يتقرر فيها نضالك وانسانيتك . انت الان امام امتحان عسير . وعليك ان تصمد) .
ربط احد الرجلين قدميه بالكرسي ، بينما راح الثاني يجرده من ملابسه كلها ، والضابط يجلس على مقعده صامتا مع ابتسامته الناعمة ..
ـ لا تخجل رفيق عثمان . انهما يريدان التاكد من فحولتك . وهوى احدهما بالخيزرانة على ذراعه ، فهوى الثاني

على ذراعه الاخرى . وهوى الاول ، فهوى الثاني ..
الثاني . الاول . الاول . الثاني . الثاني . الاول . الاول .
الثانـــي . الـ ... واستعرت الحفلة .
استعر جسد عثمــان ...
استعرت ابتسامة الضابط ..
استعر العالم . العالم استعر . العالم ..
ـ كفــى .
توقف الجلادان ، اخذا يمسحان عرقهما وهمــا يلهثان من التعــب .
ـ الآن عليه ان يشرب . أحضر الماء .
خرج احد الرجلين ، ملأ الابريق ، عاد ووضعه على الطاولة. قام الضابط ، تناول الابريق ، ابتدأ يصب الماء المثلوج على الجسد المرهق ، فأحس عثمــان عند ذلك ان الدم يختلط بالعرق والماء . الحزن يختلط بالغضب والكراهية . النضال بالعفونــة والدعارة. الله بالشيطــان والعفاريت . وكل شيء يختلط .. كل شـــيء .. كل شـــيء .
ـ ها ايهــا المناضل .. كيف تشعر الآن ؟ لا بد ان حالــك احسن . وقرب ابتسامته الناعمــة من وجه عثمــان. فتطلع الى وجهه الوحشي ، وباشمئزاز ، بحقد ، بغضب ، بصق في وجهه. فانطفأت ابتسامة الضابط لحظة ، الا انه عاد واشعلهــا من جديد .. في لحظة واحدة اشعلهــا .
ـ اذن .. فأنت ما زلت عطشا .
واتجه الى احد الاوعية ، اخرج منها مادة بيضاء ، وابتــدأ يرش على جروح عثمــان : اشرب ..
(آه الملح الناعــم
الملح الناعم والعطش
العطش والملح الناعم
الملح الناعم والعطش . آه)

وسرت النار الكاوية في جسد عثمان ، فكاد يصيح بهم: اوقفوا هذا الجحيم ، سأعترف . الا ان آلافا من وجوه العمال، الفلاحين ، المضطهدين ، البؤساء ، الرفاق ، الثوار ، السجناء ، الشهداء ، انتصبوا كالحاجز امام عينيه، فصرخ من اعمق اعماق قلبه : لا ..

عادوا يضربونه ـ لا

ضرب ..

لا ..

ضرب ..

لا ..

ضرب ..

لا .. لا ... لا

القسم الخامس

نهايات

الفصل الاول

كانت السيارة تنهب الارض نهبا في طريقها من عمان الى بيروت . صخب فظيع كان يجول في صدر صابر مطر ، لدرجة انه لم ينتبه الى القيظ الشديد والعرق المتسرب من جسده ، ولا الى تلك الآلام التي تنخر رئتيه من بقايا المرض ، ولا حتى الى تلك السهول والجبال والاشجار المنبطحة على جانبي الطريق.

اكثر ما كان يرهق تفكيره هو مسألة عبور الحدود . فحينما اخبره مروان باعتقال عثمان الاعرج ، ادرك تماما ان الدور القادم دوره ، وان الامر لن يستغرق غير ايام محدودة . ربما اليوم ، ربما غدا ، ربما بعد اسبوع .. لكن الاكيد انهم منذ زمان بعيد يشتبهون بتحركاته ، ومسؤولياته عن الاسلحة التي كانت تأتيه من بيروت ، ليهربها الى الارض المحتلة . لذلك اخبره مروان ان عليه ان يغادر المستشفى فورا ، فحمل جسده الهزيل المتعب ، ورماه في اول سيارة مغادرة بيروت . وفجأة .. سقطت عيناه على شاب منكوش الشعر ، فوضوي الملابس . فتذكر على الفور عثمان .. « عثمان .. ماذا تفعل مع الاوغاد الآن يا عثمان ؟ »

وتذكر صابر بحنان ، كيف لعب عثمان دورا بارزا في

حياته ، حينما انقذه من اسطواناته واحزانه وتناقضاته . تذكر كيف وقف الى جانبه ودله على طريق المقاومة السرية بعد مجازر ايلول والاحراش وخروج الفدائيين من عمان . تذكر كيف صارا يتعاونان على تهريب الاسلحة الى الارض المحتلة ، رغم تناقضهما الدائم حول مسألة الحل السلمي ، واتفاقهما الدائم ايضا على ضرورة الوحدة الوطنية بين فصائل المقاومة . تذكر كيف كان عثمان يتحدث عن ابو عمار ، وابو صالح وعربي عواد والآخرين وكأنهم لينين ورفاقه . تذكر حزمه وانهماكه المؤثر في العمل من اجل الحزب داخل الاردن . تذكر صابر وتذكر .. فهتف من اعماقه : « عثمان .. ماذا يفعل الاوغاد معك الان يا عثمان ؟ »

وراحت الذكريات القريبة تتدفق كينبوع دافيء على صدر صابر ، فتذكر مروان الراعي بكل طيبته واخلاصه ووسامته . تذكر كيف تمرد على طبقته البرجوازية ، وتذكر ايضا كيف صارحه ذات يوم بعد ان سكنا معا بحبه الشديد لسعاد . وكيف سأله صابر يومها : هل تحبك هي ايضا ؟ فقال له مروان ببراءة :

نعم .. لقد التقينا امس في «منتزه اللويبدة» . ان لها رائحة كرائحة التوت البري . فأحس صابر بالكمد يسري كالسم في احشائه ، لكنه قال يومها : « مروان .. انها لم تخلق الا لك. وانت لم تخلق الا لها » . وبعدها لم يخبره مطلقا بانه هو الآخر يحب سعاد . مطلقا مطلقا لم يخبره . كانت بيوت مدينة « الرمثا » الحدودية قد بدأت تلوح من بعيد ، فأبتدأ قلب صابر مطر يدق يدق .. « اخشى ما اخشاه ان النذل عبدالتواب علم بخروجي من المستشفى ووضع اسمي على الحدود من اجل اعتقالي » .

كانت السيارة ما زالت تسير بسرعة كبيرة ، والهواء الجاف يصطدم بوجوه الركاب الذين كانوا يثرثرون بلا مبالاة عن الحرب في لبنان .

– ارجـو ان تجمعوا جوازات سفركم .

قالها السائق فأبتدأ احدهم يلم الجوازات ووضعهـا علـى الرف امـام السائق . وقفت السيارة فابتدأ الضجيج يرتفع في راس صابر لدرجـة انه احس بأن تلـك الاسطوانات المرعبـة القديمـة قد تعاوده الآن من جديد .

كان مئات الركاب وسائقـو السيارات والشرطـة السريـة ورجال الدرك ينتشرون حول تلـك المباني القائمة على الحدود ما بيـن دمشق وعمان . اخذ السائق الجوازات قائلا : لا تنزلوا مـن السيارة . انني اعرف المسؤول . لن اغيب عنكم اكثر من دقائق.

طلب صابر سيجارة من احد الركاب رغم انه لم يدخن منذ ان دخل المستشفى قبل اسبوعين ، اشعلهـا ، حاول ان يجـرع الدخان فأبتدأ يسعل بشدة.لاحظ احد الركاب ارتباكه: ما بالك؟

– لا شيء . فقط انني احس بدوار خفيف .

بعد دقائق اراد ان ينزل من السيارة ليخفـي انفعـالاتـه الوحشية عن العيون . الا ان السائق اطل مبتسمـا من بعيـد : جاهزون ؟

فرد احـد الركاب : نعم .

– اتريدون شيئا مـا ؟

لم يستطع صابر ان يسكت،رمى السيجارة ، وزعق بعصبية: لا .. لا .. ثم اردف بلهجة اقل حدة :

نريـد ان نصل الى بيروت مبكرين !

وهدر موتور السيارة من جديد فشعر صابر ان كابوسا ثقيلا قـد انزاح عن صدره ، وان الغيـوم التي كانت تتلبد في سماواته قـد انقشعت فجأة فأطلق تنهيدة طويلة طويلة : آه .. فـرس الثورة تنادي . انـني اسمع صهيلها . اسمعه ..

وسرح بصره في الافق الموغل في البعـد .. كانت السماء صافيـة زرقاء فعـلا . المساء ابتدأ يستعـد للهطـول ، وبعض نسيمـات رطبة راحت تتدفق من وسط الحقول والاشجار والورود والبراري ، لتستقـر فوق الوجوه القلقة الحزينة .

الفصل الثاني

ما ان افاق عبدالتواب ذلك الصباح ، حتى احس بانه ساخط على كل شيء في هذا العالم ساخط ..

ساخط على طفولته الكريهة المرعبة ، على امه المعقوفة الساقين وابيه الضئيل ، ساخط ساخط ..

ساخط على زوجته وبرودها واستقامتها الزائدة ، على ابيها المرابي ، وعلى الفقر الذي دفعه اليها دفعا ، ساخط ساخط ...

ساخط على استنكاره المرير للحزب ، وعلى نظرات الرفاق الذين ظلوا يشمئزون منه ويتحفظون ازاءه ، ساخط ساخط ...

ساخط على ما فعله بعثمان الاعرج وصابر مطر وغيرهما، ساخط ساخط ..

ساخط على ارتمائه المهين في احضان المخابرات الاردنية ، وعلى التقارير الكاذبة والصادقة التي كان يكتبها فيمن يقعون في حبائله ، ساخط ساخط ..

ساخط على اللاشيء ، وعلى كل شيء : « آه .. انه صباح غير اعتيادي هذا الصباح . ولا اعتقد الا ان السماء ستمطر روثا . روثا ستمطر » .

ودون ان يتحرك من السرير نادى زوجته : اعطيني زجاجة بيرة .

نظرت اليه بتأمل :

— تقصد فنجانا من القهوة . أليس كذلك ؟

انفعل :

— قلت بيرة .. الا تفهمين ما معنى البيرة ايتها البلهاء ؟

زفرت بغيظ واستسلام :

— يا فتاح يا عليم !

ثم مضت الى الثلاجة ، اخرجت منها الزجاجة ، فتحتها ، ووضعتها على الطاولة بالقرب منه .

وضع عبدالتواب فم الزجاجة على فمه ، واخذ يفرغ ما بداخلها في جوفه .

احس بمرارة السائل المتدفق ، لكنه كان يشعر بالظمأ القاتل : مهزلة كبرى هذه الحياة ، مهزلة . ابن العاهرة الضابط المسؤول لم يعد يكتفي بالتقارير الصغيرة ، او بالحركة داخل الوسط الادبي .. انه يريدني ان اتغلغل في نفس كل فلسطيني ، ان اكتب تقريرا في كل فلسطيني . ان ازج بالسجن كل فلسطيني . ابن العاهرة .. لقد تضاءلت مكافآته بنفس المقدار الذي تضاءلت فيه ابتساماته الاولى . مهزلة كبرى هذه الحياة ، مهزلة .

واشعل عبدالتواب سيجارة .

بعد لحظات ، وجد نفسه لاشعوريا يقول : آه .. ماذا فعلت بنفسك يا عبدالتواب . ماذا ؟ ليتك لم تولد على هذه الارض !

وقام الى الثلاجة ، احضر زجاجة ثانية من البيرة ، فتحها وكرعها دفعة واحدة :

(آه لو فعلتها مع ذلك الصلف صابر ، بدلا من عثمان) .

وخبط قدمه بالارض : الجرو . الجرو . دائما الجرو ..

فقط لو اعرف من اين جاء بذاك الصدق كله !
لو اعرف كيف استطاع الحفاظ على براءته كاملة . لقد سجن الجرو ، عذب ، حورب في لقمته واشعاره ، ومع ذلـك لم يكفر. اصبح معتـلا مريضـا ولم ينحرف . حاولوا اغراءه فرفض . آه .. ربما كـان شيوعيا مثلي ، لكنه لم يستنكـر فـي الصحـف كمـا فعلت ، رغـم انه لم يكن راضيـا عن الانقسامـات فـي صفوف الحزب ، ولا عـن موقفه من الحل السلمي .
وصفـن قليـلا ثم عـاد يقول لنفسه : ترى .. اي اطـار سياسي سيتسع لهذا الجرو العريق !
وتمنى عبدالتواب بينه وبين نفسه لو ان صابر كـان موجودا في تلـك اللحظـة معه ، اذن لبكى على صدره وطلب منه المغفرة. لبـاح لـه بكل عذاباته ومكنونات صدره ، ولاخبره عـن كل اولئك الذين وشى بهم ، وعما فعله ويفعله رجال المخابرات معهم .
اين انت يا صابر مطر .. اين ؟!
واشعل سيجارة اخرى : آه ..
احقـا ان لدى المرء ضميرا يحاسبه ؟ اهذا هو ضميري الذي يـؤرقني الان ؟
هـه !
الضمير ؟ تقول الضمير يا عبدالتواب ؟!
وراح يسخر من نفسه بمرارة : هل تبقى لديك شيء ممـا يعرف بالضمـير عادة ؟
اللعنة .. كان « دوستويفسكي » محقـا حينمـا تساءل عما اذا كـان الشر يولد مع الانسان ام لا .
ومع ذلك لو لـم اتعرف الى صابر لما ترددت لحظة واحـدة في تصديق « نيتشه » حينمـا قرر ان الانسان شرير بطبعه ، لانه يولد والشر يسري في دمـائه ، لكـن الجرو صابر ، آه ..
ايـن هـو الآن ؟
الى اي بلد سافـر ؟

لقد حاصرناه حقا ، لقد حاصرناه .. ولو بقي اسبوعا واحدا لعاد الى السجن من جديد ، لكنه ادرك اللعبة ونجا بجلده ، فوقع عثمان الاعرج بدلا منه . مسكين عثمان هذا ، مسكين.

وقام عبدالتواب عن الكنبة ، ثم راح يتجول في الغرفة ذهابا وايابا وهو يدخن بعصبية ..

– الا تريد ان تتناول الفطور ؟

– افطري انت مع الاولاد . نفسي مسدودة .

خفضت المراة راسها وخرجت من الغرفة ..

ترى .. اي شيطان جمعني بهذه المخلوقة ؟ ان استقامتها العفنة تبث الرعب في قلبي . انها من صنف الجرو صابر . نفس الصنف التافه الحقير .

ورمى السيجارة على الارض ، داسها بحذائه ، فتح الباب وخرج . ادار مفتاح سيارته ، ثم انطلق بسرعة مجنونة . الى اين ؟ لم يكن هو نفسه يعلم ذلك .

هل يذهب الى عمله ؟ لكن الوقت مبكر ، والدائرة لم تفتح ابوابها بعد .

الى خمارة الاحزان ؟ ان الخمارة ايضا لا تفتح في موعد كهذا . ثم مع من سيجلس هناك .. مع من ؟ لم يبق الا مروان الراعي . وحتى هذا البرجوازي المدلل ايضا يحتقره .. الى اين اذن ؟ الى اين ؟ هل يذهب الى ضابط المخابرات المسؤول عنه ؟

واحس بومضة مرعبة تضيء ذهنه كله . نعم .. لم لا يذهب الى ذلك الضابط ويصفي حسابه القديم معه ؟ لم لا ينتقم لكل اولئك الذين اصطادهم هذا القذر واوقعهم في شباكه، ثم ابتدأ معهم اللعبة التي بداها معه هو ؟ لم لا .. ؟ !

وغير اتجاه سيارته . نعم .. الى ضابط المخابرات الاردني. واسرع عبدالتواب ..

كان صدره يشتعل غيظا وندما وحقدا ، وراسه يكاد يتفجر « آه .. انه صباح غير اعتيادي هذا الصباح . ولا بد

ان السماء ستمطر روثا . روثا ستمطر » .

واسرع ، واسرع ..

لكنه فجأة ، داس على «البريك» فوقفت السيـارة محدثة صوتا مزعجا، وكاد راسه يصطدم بالمقود .

نظر الى باب العمارة ، قرا عبـــارة « وزارة الداخلية ــ المخابرات العامة » فأحس بالرعب .. كـان عليه ان يطلب من احد الجنود ان يفتح له باب العمارة ، لكـن اعضاءه ابتدات ترتجف ، قلبه ابتدا يضرب بقوة ، وانفاسه اخذت تتلاحق . ما هذا ؟

ووقعت عيناه على الجندي الحارس ، فأحس كأن سهمـا مسمومـا يخترق اعصابه ويشقه الـى نصفين .

ــ تفضل استـاذ .

وفتح الجندي الباب الحديدي ، لكـن عبدالتواب كان مرتبكا اكثـر ممـا ينبغي ، فوجـد نفسه يعـود تلقائيـا بسيارته الى الوراء ، وينطلق بسرعـة مجنونة الى « رابطـة الكتاب » .

في الطريق كـاد ان يدوس احد الاطفال لكنه لم يتلفت الى الوراء :

« تفو على الفرج الذي بصقك فوق هذه الارض . بالتأكيد انه فرج فلسطيني ، ولم ينجبك الا للشقاء » .

واوقف سيارته ، تناول مسدسا كان يقبع في احد جيوبها، ثم نزل . فتح باب الرابطـة ودخل . كانت كوابيس الارض كلهـا تجثم فوق صدره ، والعالم صار ظلامـا في عينيه « انـه صباح غيـر اعتيادي هذا الصباح . ولا بد ان السماء ستمطر روثا . روثـا ستمطر » .

وجلس على مقعد رئيس الرابطة الذي كان دائما يحلـم بالجلوس فوقه ، لكنه بعـد لحظـة واحدة احس بتفاهـة ذلـك الكرسي : انه باطل ، باطل . مثله مثل كل الموجودات فوق هـذه الارض الكريهـة . لا حقيقـة خالدة في هذا الكون الا الموت. مهزلة كبرى هـذه الحياة مهزلـة .

وفجاة اطلق صرخـة جنونية : تفو عليك يا صابر مطر تفو. والله لقـد قتلتني ايها الجرو ..

ثم تناول ورقة ، كتب عليهـا :

لم اعـد استطيع الاستمرار . انني حقير ..

وداعا ، وداعا . انني حقير ..

لقد ارتكبت كثيرا من الجرائم بحق وطني . انني حقير ..

كان على احدهم ان يحاكمني ، وينفذ بي حكم الاعدام ، فكنت انـا ذلـك الشخص ..

انا الحقير ، الحقير ..

« عبد التواب الفواعرة »

ثم تناول المسدس ، ودون ان يفكر او يتردد ، بـل دون ان ترتجف يده ، صوب المسدس الى راسه ، ثـم ضغط علـى الزنـاد .

وللحظـة واحدة احس بالندم ، الا ان الظلام والصمت كانـا قـد سادا كل شيء بعد ذلك ، كل شيء ، كل شيء .

الفصل الثالث

عزيزي مروان :

لقد وصلت الى بيروت سالما. خلال ايام سأتجه الى الجنوب. بودي لو اطمئن عنك وعن عثمان . سأبعث لك رسالة اخرى في فترة قادمة . الى اللقاء ..

« صابر مطر »

٦/١٤

* * *

اخي صابر :

وصلتني رسالتك المقتضبة . تمنيت لو انها كانت اطول قليلا لاتعرف على دقائق حياتك وتفصيلاتها في بيروت . قبل كل شيء لا بد ان اخبرك ان عبدالتواب قد انتحر . ولا حديث للادباء هذه الايام الا عنه . والغريب انني قبل يومين فقط صدفته في احد الشوارع ، فأدرت وجهي الى جهة اخرى وابتعدت وانا اردد بيني وبين نفسي : « انه خائن ، مقيت ، لا يطاق » . تصور !

على اي حال : انني قلق عليك وعلى نفسي . ولا اكتمك يا صابر بانني اعيش ظروفا نفسية صعبة . فأنت لا تدرك مدى الفراغ المذهل الذي خلفه غيابك وغياب عثمان عني . لم أعد اذهب الى خمارة الاحزان . لقد اقلعت عن الشرب . انها عادة سخيفة تخلصت منها نهائيا . اهلي .. نادرا ما اذهب اليهم.

فكلمـا قارنت بيـن الحياة في بيتنـا وبيـن حياة احد عمـال الكسارة ، اشعـر بالاشمئـزاز والغضب والثورة تجتاحنـي اجتياحا . .

نعم يا صابر .. لقد اصبحت غريبا عن اكثر الاشياء مـن حولي . زملائي الوحيدون هم بعض عمال الكسارة . امـا عزائي الدائم فهي خطيبتي سعاد . انهـا انسانـة غير عادية . دائمـا تقف الى جانبي وتشـد ازري . انني احبهـا ياصابر ، احبها . واكثر الوقت تتحدث عنك بكل طيبة ومودة . وقريبا سـوف نتزوج . عثمان .. لا اعرف عن امره شيئا . انه معتقل وكفى . ولطالمـا اصطدمت مع ابـي مـن اجله ومن اجل عامل آخـر في الكسارة ، يكـاد يكـون نسخـة طبق الاصل عـن عثمـان . ولكنك يا صابر تعرف عقليـة ابي البرجوازية ، ومفاهيمه البغيضة عن الحيـاة والناس ووسائل استغلالهم وتدميرهم . كم اتمنـى لو انك ما زلت بيننا ، ولكـن .. سأنتظـر رسالتك القادمة بلهفة. آمل ان تخبرنـي عـن حياتك الجديدة ، وعـن صحتك واشعارك وكل شـيء ، كل شيء .

٦/٢٦

« مروان الراعي »

* * *

عزيزي مروان :

من جنوب لبنان اكتب اليك . من هنا .. من خلال الرصاص والبنادق والمتاريس والدم . من خلال وجوه المقاتليـن بملابسهم المموهـة وعنادهم واحلامهم الكبيرة . هنـا نخوض المعركـة ضد « اسرائيل » والامبرياليـة ، وضد عصابات شمعون وبيير الجميل وابـو ارز . هنـا يقاتل الفلسطيني جنبا الى جنب مـع العربـي المضطهد . معنـا في الخنادق وطنيـون ، ناصريون ، بعثيـون ، شيوعيـون .. الوجوه الشريفـة كلهـا تلتقي هنـا لكي تدفـع ضريبة الدم عـن هذا الوطـن العربـي .

لي اصدقاء كثيرون ، يحبونني واحبهم . كوب الشـاي هنا

لــه طعم خاص . القصيدة تحمل في احشائهــا رائحة البارود. اطلاق النار على العدو يشعــر المرء بانه انسان جديد .. انســـان يدافع عــن حقه في العيش وعن وطنه وكرامته . ان الحياة هنا رائعـــة يا مروان ، رائعـــة . وقــد لا تصدق ان صحتي تحسنت كثيرا ، رغم انني لا اكــاد ارتاح لحظة .

وانت يا مروان ؟ احقا تتعذب ؟

تعذب يا صديقي تعذب .. ان العذاب هو مطر الله علــى الابرياء امثالنا . انه المغطس الذي يمكــن ان نتطهر فيه من قذارة البعض . انه احدى الطرق الرئيسيـــة المؤديـــة الى الثورة .اذن.. لــم لا تتعذب فترة ؟ تعذب يا صديقي . تعذب ، ولكن .. بصدق ورجولة ، بشموخ وكبرياء . تعذب الان من اجل ان تثور غدا . ان النضال مسألة ليست سهلة ابدا وتحتاج الى شجاعة كبيرة .لذلك يا مروان فان علينـــا ان نرفض . نرفض كل المواقف الهزيلـــــة والادعياء والمراوغين والانتهازيين . نرفض الجبن والزيف والتفاهة ونرفض النفاق السياسي والمساومـات الرخيصـة والخــــداع والتضليـــل .

كان طموحنـــا دائما يتمثل في اننـــا نريـــد ان نمارس وجودنا فوق تراب الاجداد بنفس البساطـة التي تمارس فيها العصافير حقها في الطيران ، وبنفس الطريقـة التي تنمو بهـــا اي شجرة فارعة مثمرة ، وبنفس الاسلوب الذي تسبح فيه السمكـة فــي البحيرة . لكــن كل شيء ضاع .. قوى شيطانيـــة كثيرة تآمرت علينـــا واقتلعتنـــا من جذورنـــا ، فكيف لا نرفضهـــا .. كيف ؟ على الفلسطيني يا مروان ان يكون رافضـــا ، رافضا ، رافضا ،.. والا فانه سيكــون قد ذهب بأقدامه الى المصيدة .

تحياتي الى سعاد . اذا علمت شيئا عن عثمــان اخبرني . اتمنى لك ان تجد دربك ايضا . اخيرا .. لقد اسفت على انتحار عبدالتواب . اسفت حقا .

٧/١٦ « صابر مطر »

الفصل الرابــع

ــ عثمان الاعور . وجبة الدسم .

ارتسمت شبه ابتسامة باهتة على وجه عثمــان ، ولم يعلق بحرف .. لقد اعتاد كل شيء . اعتاد الابتسامة الغريبة الناعمة للضابط . اعتاد اسمه الجديد (عثمان الاعور)

اعتاد الجلادين والضرب بالسياط والخيزران . اعتاد التبول والاكل والشرب في نفس الزنزانــة وكل شيء . كل شيء . كل شــيء .

لذلك ما أن دخل الغرفــة الحمراء حتى ابتدأ تلقائيا بخلع ملابسه ، أغمض عينيه ، وجلس بتثاقل واعياء على كرسيه المعتاد.

اقترب منه احــد الرجلين ، ربطه الى الكرسي . وخاطبــه بلهجــة باردة :

اری انك لــم تعــد تبالي بتعذيبنا .

لــم يفتح عثمــان عينيه ..

ــ مع ذلك ، فهذه المرة ستبالي . وحيــاة سيدنا ستبالي.

ثم جاء بأداة كهربائية ، قرّبها من جســد عثمــان ، وراح يتلذذ باطلاق ضحكة قــوية مرعبة . كان مثل وحش هائج متعطش للدم، وعثمــان فريسته المنتظرة ، مست الاداة صدر عثمــان ، ففتــح عينيه بذعــر ، وأطلق صيحــة خافتة مؤلمة .

ــ ها . اما زلت لا تبالي ؟

كانت الآلام الحبيسة كلهــا تتجمع في حلقه ، والدمـــوع تتحجر في عينيه المتعبتين . الا انه كتم كل شيء ولم يرد . قرب

الجلاد الاداة الكهربائية من بين فخذيه ، أرتجف عثمان قليلاً ، فقال الجلاد الثاني ببرود :
في عضوه .. في عضوه !
قرّبها الجلاد الاول من عضوه ، فصرخ عثمان صرخة موجعة جريحة . ضحك الجلاد بعنف . قربها ثانية ، فازداد الصراخ المرعب الأليم ، وازداد الضحك : اعترف .
ـ ..
ـ اعترف
ـ ..
ـ اعترف . اعترف
ثم قرّب الاداة من وجهه ، فانطلق العواء الانساني الرهيب من جسد عثمان كله .. كان عواء ذبيحا نائحا اشبه بصوت الارض حينما يمزق الرعد بكارتها على حين غرة ، فتسيل دماؤها الساخنة لتملأ البحار والمحيطات والانهار .. صوتا يرتفع عاليا عاليا ليشق عنان السماء ، وينخفض نازلا نازلا حتى ينغرس في رحم الكرة الارضية .. انه صوت البشرية المضطهدة في ارجاء المعمورة كلها :
ـ لن يغفر لكم الحزب . لن تغفر لكم الثورة .
ـ ها ؟
وانطلقت شهوة التعذيب الجهنمية في اعماق الجلادين حادة كريهة ، لذيذة جارحة :
كهرباء
صراخ
ضحك
كهرباء
صراخ
ضحك
كهرباء

صراخ
ضحك
كهرباء .. صراخ .. ضحك ..
كهربـــاء
. . .
ضحك
كهربـــاء
. . .
ضحك
ضحك
ضحك
ضحك
ضحك
ضحك
ضحك .. ضحك .. ضحك ..

وفجأة ساد الصمت كل شيء . مال راس عثمـان الاعـرج الى اليسار ، وسكـن جسده المهشم تمامـا ، فتوقف النشيـد الدموي عندها ، وعبقت رائحة الموت السري في ارجاء الغرفـة الحمراء حتى سيطرت على الهواء الساكـن والجدران والاسمنت والدم المسفوك . فاخرج احد الجلاديـن صوتا ضعيفـا شبـه مرعوب : انتهـى ؟

ــ ربما ! واقتربا منه ، فكـا وثاقه ، ثم حملاه ورمياه فـي الزنزانـة .. في نفس الركـن الذي اعتاد عثمـان الاعـرج ان يتغوط فيه ..

حدث ذلك في فجر ذات يوم كئيب من ايام نيسان . فـي نفس الدقيقـة التي كـان فيهـا سجناء آخـرون يصرخون او يستمعون للصراخ ، وفي نفس اللحظـة التي كانت فيها الشمس تستعـد للشروق من جديد !

فهرس

صدر للمؤلف

- **فلسطيني كحد السيف ـ** **شعـر ١٩٦٩**

دار عويـدات ـ بيـروت

- **قصائد من عيـون امراة ـ** **شعـر ١٩٧٣**

دار عويـدات ـ بيـروت

- **عواء الذئب ـ** **شعـر ١٩٧٧**

فلسطين الثورة ـ الاعـلام الموحـد

هذه الرواية

عالم المخابرات الاردنية ، الزنازين ، المداهمات ، الاعتقال التعذيب ..
عالم الضياع ، الحرمان ، الجوع ، التوتر ، الحب ، التمرد.
عالم الاحزاب ، المنشورات السرية ، الحقد الطبقي ، تفسخ البرجوازية ، العمال المسحوقين ، المثقفين الثوريين ، الانتهازيين ..
عالم النفوس القلقة ، الضمائر المعذبة ، المعاناة الحادة الاليمة ، الانتحار ..
عالم الارهاب السياسي ، التدجين ، الرفض ، المقاومة حد الموت ..
هذه العوالم المشحونة بشتى الانفعالات النفسية الدامية ، والتي تصور واقع الانسان الفلسطيني بعد خروج المقاومة إثر مجازر ايلول والاحراش ..
يغوص فيها الشاعر علي فوده ، خلال روايته الاولى « الفلسطيني الطيب » ، بشخوص يتمتعون بحيوية دافقة ، وبلغة لا تبتعد كثيراً عن .. لغة الشعر .

الثمن ٩ ل.ل. او ما يعادلها